الجهاد في الإسلام

تأليف
محمد شديد



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد ... ومنهج

الجهاد بين عهدين :

العهد المكى ، والعهد المدنى :

الأول فى مكة ومدته ثلاثة عشر عاماً ، والثانى فى المدينة ومدته عشر سنين .

ولكل منهما طابعه وسماته وقرآنه الذى نزل فيه :

فالعهد المكى عهد دعوة وتربية ، لم ينزل فيه تشريع ، ولم تكتب فيه فرائض إلا الصلاة ، ولم يؤذن فيه بقتال ، ولم يكن فيه بطبيعة الحال نفاق ولا منافقون ، إذ كان عهد محنة متصلة قاسية ، ولم يكن فيه جاه ولا سلطان ولا مظنة منفعة مادية عاجلة ، بل كان الأذى مؤكداً لكل داخل فى الإسلام :

ولم يكن فى مكة حين البعثة من أهل الكتاب إلا أفراد قلائل ، كان فرحهم بالإسلام عظيما ، وكانت وفود النصارى تأتى إلى مكة من أقطار بعيدة لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورؤيته والاستماع إليه ، فلم يحدث فى هذا العهد صدام بين أهل الكتاب والإسلام ، فخلا القرآن المكى من مهاجمتهم إلا ما كان خاصاً بالعقيدة :

وفزع زعماء قريش وخافوا على سلطانهم وأوضاعهم من انتشار الإسلام ، فكذبوا رسوله ، وقاوموا دعوته ، وعذبوا المؤمنين ، وكانت ضراوتهم بالغة بكل داخل فى الإسلام ، وخاصة من لم تكن له عصبية تذود عنه وتحميه ، ورغم ذلك كان عدد المؤمنين فى ازدياد مستمر ، فازدادت مقاومة قريش للدعوة ، وإيذاؤها للمؤمنين وهم صابرون محتسبون ، لا يقاومون ولا يدفعون العدوان ، لأن القرآن أمرهم بالصبر والمغفرة والعفو وكف الأيدى عن القتال ، ثم هاجر منهم عدد كبير إلى الحبشة ، عاشوا فيها فى أمن وطمأنينة فى حماية ملكها ورعايته .

وفى هذا الجو المليء بالمقاومة والتعذيب ، استمر النبى فى دعوته ، لا يمل ولا يهدأ ولا يداهن ، يتلو القرآن على الملأ من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، ويرد على مسائلهم ، ويتصل بهم فرادى وجماعات ، ويلقى وفود الحاج فى الموسم كل عام ، يدعوهم إلى الله ، ويطلب منهم حمايته ونصرة دعوته ، ويصبر نفسه مع المؤمنين يسكب فى قلوبهم الإيمان والأمل ، ويربيهم على التحمل والثبات والصبر .

وفى أواخر هذا العهد ، ذهب إلى الطائف يلتمس نصرة ثقيف ، فلم يجد منهم إلا التكذيب والأذى ، وفى موسم الحج لقى جماعة من حجاج يثرب ، عرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وكانوا نواة الأنصار الذين بايعوا بيعة العقبة .

ثم كانت الهجرة إلى المدينة ، وبدأ العهد المدنى .

وبدأ الرسول فى تنظيم مجتمعه الجديد ، فآخى بين المسلمين ، وحل مشكلة إيواء المهاجرين ، وقضى على الخصومة التى كانت بين الأنصار قبل الإسلام ، وبنى مسجداً كما أقام بعض المساكن لزوجاته وأصحابه ، وأقام سوقاً نظم فيها تجارة المدينة .

وكان عدد اليهود الذين يقيمون فى المدينة كبيراً ، فكتب الرسول معهم معاهدة أمنهم فيها على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم ومعابدهم ، وأرسى فيها قواعد المجتمع فى السلم والحرب ، وأصبح بها الحاكم الفعلى للمدينة ، وبدأ باقى مشركيها بالدخول فى الإسلام .

وبدأ المجتمع الجديد يحس بالهدوء والأمن والاستقرار ، ولكن ما كانت قريش لتترك الإسلام والمسلمين ، فقد اعتبرت انتقال الدعوة إلى المدينة خطراً كبيراً على تجارتها فى طريقها إلى الشام ، وخطراً كبيراً على سلطانها بانتشار الإسلام ، فلا غرو أن يتوقع المسلمون مهاجمتها للمدينة فى أى وقت، فَشُرِع القتال لدفع العدوان وتحرير المستضعفين ، ونظم القرآن قواعده وآدابه ، وبدأ الرسول فى بعث السرايا والمناورات على الحدود ، تأميناً للمدينة وخشية هجوم المشركين ، ثم كانت معركة بدر وما تلاها من السرايا والمواقع حتى نهاية العهد .

ومن هذا العرض الموجز لعهدى السيرة ، يبين أن العهد المكى لم يكن عهد مقاومة ولا قتال ، ولم يكن عهد دولة ولا تشريع ، ولم يقم فيه المسلمون بعمل إيجابى دفاعاً عن أنفسهم من عدوان المشركين .

إن أبرز سمات هذا العهد ، هى تربية المؤمنين على ضبط النفس والتجرد والصبر والاحتمال ، وهو عمل كبير وجهاد شاق قام به

الرسول وفق منهج القرآن ، فربى جماعة كانت هى الأساس الذى قام عليه مجتمع المدينة وجيش الإسلام الجديد .

وإذا جاز أن نعقد موازنة بين طبيعة الجهاد فى كل من العهدين ، من حيث المشقة والجهد الذى تطلبه كل منهما ، ومن حيث الأثر الذى تركه فى سير الدعوة وتاريخ الإسلام ، أدركنا مدى ما كان فى العهد المكى من مشقة ، ومدى ما بذل فيه من جهد ، ومدى ما تطلبه من إيمان ومصابرة ، فالموت صبراً أثناء التعذيب ، وتجرع الغيظ ، والصبر على أذى اللئام مع القدرة على الدفاع والانتصار ، أشق على النفوس المؤمنة من خوض المعارك وبذل النفس فى ميادين القتال .

أما أثر كل من العهدين فى سير الدعوة وتاريخ الإسلام ، فهما مرحلتان متلازمتان ، وعهدان متكاملان ، يؤدى أولهما تلقائياً إلى الثانى ، ولا يقوم الثانى إلا على أساس الأول ، فبناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة والدعوة ، وتكوين النواة القوية الصلبة لجيش يجاهد فى سبيل الله ، وتربية الأسرة المؤمنة الفاهمة ، التى تسند ظهر المجاهدين ، وتؤمن بالبذل والشهادة ، وتؤدى رسالتها فى المجتمع ، فلا تتلفها خسارة الأنفس والأموال ، إن ذلك كله لا بد أن يتم قبل تكوين الدولة وخوض معارك القتال ، وذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سر عظمة مجتمع المدينة ، وسر ما رواه التاريخ عن الرعيل الأول فى السلم والحرب على السواء .

مفهوم الجهاد فى الإسلام إذن لا يقتصر على جهاد الحرب ، إنما يشمل السلم والحرب ، فالدعوة إلى الإسلام بالقلم واللسان جهاد ، والتربية وفق منهج القرآن فى البيت والمدرسة والمسجد والمجتمع جهاد ، وكل عمل يبذل خالصا لوجه الله لنصرة الإسلام وخير الإنسانية جهاد ؛

وسوف نحاول فيما يلى من صفحات ، تفصيل هذا الإيجاز لبيان طبيعة الجهاد فى الإسلام من القرآن الكريم ومن واقع تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الأول

الجهاد فى العهد المكىّ

ا – جهاد الدعوة ؛

ب – جهاد التربية ؛

ا – جهاد الدعوة

لماذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ولماذا أنزل عليه القرآن ؟

ولماذا جاءت رسالة الإسلام ؟

لقد أجمع مؤرخو ما قبل الإسلام على أن العالم فى تلك الفترة كان يعيش فى جاهلية مظلمة ، تعانى معظم شعوبه وطأة الحكم المطلق المستبد ، كما تعانى ضخامة الفوارق بين الطبقات والأفراد ، كما انحرفت البشرية عن هدى السماء ، وبذلك فقدت أمن النظام وطمأنينة العقيدة ووازع الضمير ، فسادها الجهل وعمها الظلم والفساد ؛

وكانت كل نواحى الحياة فى حاجة إلى إصلاح ، إصلاح عالمى شامل لسائر الأمم والشعوب ، فبعث الله محمداً لهذا العالم ليخرجه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، وأنزل عليه القرآن منهجاً لهذا الإصلاح ودستوراً يسير على هدى مبادئه فى تكوين أمة جديدة تؤمن به ،

وترى عليه ، ونطبق نظامه ، وتحمل أمانة الدعوة إليه والجهاد في سبيل التمكين له والدفاع عنه والمحافظة عليه :

وكان الميدان الأول للدعوة ميداناً متعباً ، يتطلب العمل فيه جهادا شاقاً وصبراً بالغاً ، فقد كانت جزيرة العرب مسرحاً للفرقة والعداوة ، عقيدتها وثنية فاسدة ، ونظمها بدائية متخلفة ، وقد فرضت مكة سلطانها الديني على سائر العرب ، ووقفت عصية عنيدة في وجه كل إصلاح في الداخل أو تبشير وافد عليها من الخارج .

وظلت اليهودية تجاور العرب في يثرب وما حولها لمدة قرون ، والنصرانية في الجنوب والشمال ، دون أن تؤثر إحداهما في مكانة مكة ، وظلت محافظة على وضعها كعاصمة دينية لشبه الجزيرة ، يدين لها العرب بالولاء ، ويحجون إليها في كل عام تقديساً للبيت الحرام والأصنام :

كان من الطبيعي أن يجعل محمد من مكة مركزاً لدعوته ، ويبدأ بدعوة أهله وأصدقائه وعشيرته ، والاتصال بمن يثق به من قومه ، وقد آمن به منذ البداية أقرب الناس إليه وأعرفهم به ، ورغم أن قريشاً كلها كانت تثق به وتدعوه بالأمين ، لما لمسوه فيه من كريم الخلق والأمانة والصدق ، فقد بادر السادة والزعماء بتكذيبه وإنكار دعوته ، لأنهم رأوا فيها قضاء مبرما على عقائدهم وأصنامهم التي يستمدون منها سلطانهم ، ولكن الرسول استمر في دعوته غير عابىء بموقفهم منه ، وكان عدد المؤمنين في ازدياد مستمر ، وانقسمت مكة إلى معسكرين متميزين ، وشغل مجتمعها كله بالدعوة ، واستمر النضال بين الفريقين

قوياً عنيفاً ، يختلف فى أسلوبه ومظهره من مرحلة إلى مرحلة حتى انتهى بفتح مكة .

ولسنا هنا بسبيل تفصيل أحداث السيرة وسرد وقائعها ، إنما الذى يعنينا هو الحديث عن جهاد الرسول والمؤمنين ، وبيان طبيعة الجهاد فى هذا العهد .

معارك العهد المكى :

خاض الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا العهد معارك قاسية استمرت سنوات طوالا ، لم تكن معارك حرب وقتال ، بل كانت معارك عقيدة وفكرة ، دافع فيها المشركون عن أوضاعهم دفاع المستميت ، وبذلوا جهدهم فى مقاومة الإسلام ، وحاربوه بشتى الأسلحة والأساليب ...

معركة العقيدة :

أولى المعارك وأهمها وأقساها ، فلم تكن قريش تدافع عن وثنيتها لمجرد الإيمان بها ، بل كان دفاعا عن أوضاعها وثرائها ، لأنها كانت تستمد سلطانها من قيامها على الأصنام وحمايتها للبيت الحرام ، وقد أدركت ما فى الإسلام من خطورة على سلطانها ، وكساد لتجارتها ، وقضاء على ما كانت تتمتع به من أرباح طائلة :

« وقالُوا إنْ نتَّبِع الهُدَى مَعك نُتَخَطَّفْ مِن أَرْضِنا ، أَولَم نُمَكِّنْ لهم حَرَمًا آمِنًا يجْبَى إليْه ثَمراتُ كلِّ شىءٍ رِزقًا مِنَ لدُنَّا ؟ ولكنَّ أكثرَهُمْ لايَعلمُونَ (١) » .

---

(١) آية ٥٧ من سورة القصص .

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، إنما يخشون نتائج الإيمان به واتباعه .

وقد ردهم القرآن إلى الحقيقة الكونية الكبيرة ، حقيقة القوة المهيمنة على الوجود ، قوة الله ، فهي التي تهلك الأمم لظلمها ، أما اتباع الهدى فهو سبيل النجاة لا سبب الهلاك :

« فانظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ مكْرِهم أَنَّا دمَّرْنَاهُم وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فتِلكَ بُيوتُهم خاويةً بما ظَلَمُوا ، إن فى ذلك لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وأَنْجَيْنَا الذِين آمَنوا وكَانوا يَتَّقون (١) » .

وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، وأن أصنامهم رموز لها فى الأرض ، تقربهم إلى الله زلفى ، فأفاض القرآن فى بيان فساد هذه العقيدة ، كما أرسى قواعد التوحيد الصحيح ، فالله وحده هو المتفرد بالخلق والرزق ، متفرد بالأمر والتدبير ، فيجب أن يكون له وحده الدعاء والعبادة ، أما الملائكة فهم خلق من خلقه ، ليسوا بناته ، فهو لم يلد ولم يولد ، وليس له بأحد من خلقه نسب ولا قرابة ، وليس له منهم شفيع ولا وسيط ولا شريك .

فعجب المشركون وكابروا وجادلوا وأصروا على وثنيتهم :

« وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُم ، وقال الكافِرون : هذا ساحِرٌ كَذَّاب . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلهًا واحدًا ؟ إنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ . وانطَلَقَ الملأُ منهمْ أَنِ امْشُوا واصبِرُوا على آلهتِكُم ،

---

(١) الآيات ٥١ ـ ٥٣ من سورة النمل .

إنَّ هذا لشيءٌ يُراد . مَا سَمِعْنا بهذا فى المِلَّةِ الآخرةِ ، إنْ هذا إلا اختِلاقٌ (١) » .

وتتابع القرآن بالرد عليهم وبيان حقيقة الوحدانية فى معظم السور المكية :

« أَمَّنْ يُجيب المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويكشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكم خُلَفَاءَ الأَرض ، أَإلهٌ معَ الله ؟ قليلاً ما تَذَكَّرون . أَمَّنْ يَهْديكُمْ فى ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحر ومَنْ يُرسِلُ الرياحَ بُشْرًا بينَ يدَىْ رحمَته ، أَإلهٌ معَ الله ؟ تَعَالى الله عَمَّا يُشرِكونَ . أَمَّن يبدأُ الخلْقَ ثم يُعِيدُه ومَن يرزُقُكُمْ من السماءِ والأَرضِ ، أَإلهٌ مع الله ؟ قُل هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنتُم صادقين (٢) » .

وكانوا على علم بعقيدة النصارى فى المسيح عليه السلام ، فقالوا : يا محمد ، كيف تعيب قولنا فى الملائكة ، وهؤلاء إخوانك من أهل الكتاب ، يقولون فى عيسى ما نقول فى الملائكة ، فنحن خير منهم عقيدة وأشف فكرة ، فقد عبدوا بشراً ونحن عبدنا الملائكة . فبين لهم القرآن فساد قياسهم ، فكلاهما شرك يتنافى مع التوحيد :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَم مثلاً إذا قَوْمُكَ منه يَصِدُّونَ . وقالوا : أَآلهتُنَا خيرٌ أَم هو ؟ ماضَرَبوه لك إلا جَدَلاً ، بلْ هُم

---

(١) الآيات ٤ — ٧ من سورة ص .

(٢) الآيات ٦٢ — ٦٤ من سورة النمل .

قومٌ خصِمُون . إنْ هُوَ إلا عبدٌ أنْعَمْنَا عليه وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِى إسرائيل (١) » .

وكانوا يعتزون بنسبتهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويزعمون أنهم على دينه ، فبين لهم القرآن أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وكيف حارب الوثنية وحطم الأصنام ودعا إلى التوحيد وما لقى فى سبيل دعوته ، وذكر لهم قوله لقومه ، فكأنما هو خطاب حاضر من إبراهيم لذريته المشركة من ثنايا الماضى البعيد :

« وقَالَ إنَّما اتَّخَذْتمْ من دون الله أوثانًا مودةَ بينِكم فى الحياةِ الدنيا ، ثم يومَ القيامةِ يكفرُ بعضكُم ببعضٍ ويلعنُ بعضكُم بعضًا ومأواكم النارُ وما لكم مِنْ ناصِرِينَ (٢) » .

وأعطاهم صورة معبرة موحية لتوحيد إبراهيم وعداوته للوثنية وإيمانه بالله وصلته به سبحانه :

« قَالَ : أفرأيتُم ماكنتُم تعبدُون . أنتُم وآباؤُكُم الأقدَمون ؟! فإنَّهم عدوٌّ لى إلا ربَّ العالمين . الذى خلقنى فهو يَهدين . والذِى هو يُطْعِمُنى ويَسْقِينِ . وإذا مَرِضْت فهو يَشفِينِ . والذى يُميتُنى ثم يُحيِينِ . والذى أطمعُ أنْ يَغْفِرَ لى خطيئَتِى يومَ الدينِ . ربِّ هَبْ لى حُكْمًا وألْحِقْنِى بالصالحين (٣) » .

(١) الآيات ٥٧ – ٥٩ من سورة الزخرف .
(٢) آية ٢٥ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيات ٧٥ – ٨٣ من سورة الشعراء .

وسارت معركة البعث والجزاء مع معركة التوحيد ، فقد كان العرب يتصورون أن الدنيا هى غاية الوجود ، ولا يؤمنون بحياة بعد الموت :

« وقالوا إنْ هى إلا حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعُوثِين (١) » .

« بل عَجِبوا أن جاءَهم مُنْذِرٌ منهم فقال الكافِرون هذا شىءٌ عَجِيب . أئِذا مِتْنَا وكُنَّا تُرابًا ، ذلك رجعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمنا ما تنقُصُ الأَرضُ منهم ، وعندنا كتابٌ حفيظٌ (٢) » .

وجاء أبىّ بن خلف يجادل رسول الله فى البعث ، وفى يده عظم رميم ، يفته ويذروه فى الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ .

فقال له ، نعم : يميتك ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى جهنم .

وفيه نزلت الآيات : « أوَلَمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من نُطْفَةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبينٌ . وضَربَ لنا مثلاً ونَسِى خلْقَه ، قال : مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وهى رَمِيمٌ ؟ قل يُحيِيهَا الذى أنشأَها أولَ مرةٍ وهو بكُلِّ خَلْقٍ علِيمٌ (٣) » .

ولم تكن فكرة المسئولية الفردية معروفة فى المجتمع العربى ، بل كانوا يعرفون المسئولية الجماعية ، تحمل القبيلة عن أفرادها مسئولية

(١) آية ٢٩ من سورة الانعام .
(٢) آية ٢ — ٤ من سورة ق .
(٣) الآيات ٧٧ — ٧٩ من سورة يس .

المغارم والديات ، ولم يكن لديهم قضاء بحاكم الفرد ، ولا قانون يحدد الجريمة ، فأقام الإسلام أمر الدنيا والآخرة على أساس التبعة الفردية !

« أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إلا مَاسَعَى . وأَنَّ سَعْيَهُ سوفَ يُرَى . ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأَوْفَى وأَنَّ إلى ربِّك المُنْتَهَى (١) » .

فزادت المعركة بهذه الفكرة شدة ، وزادت المشركين تكذيباً وعناداً وإنكاراً للبعث والجزاء ، فأنكروا على المؤمنين إيمانهم بها ، وساوموهم على ترك دينهم نظير أن يقوموا عنهم بحمل أوزارهم ، إن كانوا آمنوا خشية البعث والجزاء :

« وقال الذِين كفروا للذِين آمنوا اتَّبِعُوا سَبيلَنَا ولْنَحمِلْ خَطَايَاكُم ، وما هُمْ بحامِلِينَ مِنْ خطاياهم مِن شَيْءٍ ، إنَّهم لكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأثقالاً مع أَثْقالِهم ، وليُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عما كانوا يَفْتَرونَ (٢) » .

واستمرت معركة العقيدة قوية حامية طول العهد المكى ، ونستطيع أن ندرك مما شغلته من سور القرآن المكى ، مدى مقاومة المشركين لها وإصرارهم على وثنيتهم ، ومدى ما لاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل الدعوة إليها والمنافحة عنها :

---

(١) الآيات ٣٨ ــ ٤٢ من سورة النجم .
(٢) الآيتان ١٢ و ١٣ من سورة العنكبوت .

معركة الحرية الفكرية :

حرية الفكر والاعتقاد من أهداف الإسلام الكبيرة ، يوفرها للمؤمنين به وغير المؤمنين ، ولقد جاء والعقل فى مجال العقائد شبه معطل أو محجور عليه ، يعانى كثيراً من الضغط والإكراه ، فالوثنية بطبيعتها دعوة إلى الجمود والجهل ، وهى على وضوح تفاهتها وبيان فسادها ، لا يحاول أصحابها أن يفكروا فى حقيقتها ومدلولها وجدواها ، إنما يؤمنون بها تقليداً للآباء وطاعة للسدنة والزعماء ، فاذا فكر فيها أو نقدها إنسان ، طاردوه وأعلنوا عليه الحرب ، وحالوا بالقوة بينه وبين الجهر برأيه وفكرته ، كما حدث لجماعة الموحدين الذين ظهروا بمكة قبيل الإسلام ، فقد ضاقت بهم الوثنية وألجأتهم إلى الخروج من مكة والتفرق فى البلدان .

أما أهل الكتاب فقد كان التفكير عندهم فى العقيدة قرين الإلحاد ، وكانت حكمتهم السائدة فى مجال الإيمان : « أطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى » .

فجاء الإسلام ليحرر العقل الإنسانى من كل ضغط أو إكراه ، ودعا إلى التفكير والعلم ، وكانت أولى آيات القرآن نزولا ، أمراً بالقراءة ، وإشادة بالقلم والعلم :

« اقرأْ بِاسْم ربِّكَ الذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ . اقرأْ وَرَبُّكَ الأكرمُ . الذِى علَّمَ بالقَلَمِ . علَّمَ الإنسانَ مالمْ يَعلَم (١) » .

(١) الآيات ١ ـ ٥ من سورة العلق .

وكانت أعظم خطوة فى سبيل حرية الفكر ، هى موقف الإسلام من المعجزات الحسية ، فقد كان الأنبياء من قبل ، يؤيدون بمعجزات وخوارق تحمل الناس على تصديقهم والإيمان بهم ، وكانت الفكرة عن النبوة مرتبطة بالمعجزة ارتباطاً وثيقاً ، فلما بعث محمد ودعا إلى الله طالبه المشركون بأن يجرى الله على يديه مثل ما أجراه على يد من سبقه من الرسل ، كدليل على صدقه ، ولما كانت المعجزة الحسية تتنافى مع طبيعة الرسالة الخاتمة ، ولا تتفق مع هدف الإسلام فى تحرير الفكر الإنسانى ، وما يريده للبشرية من رشد ونضوج ، فقد جاء القرآن معجزة معنوية ، يبعث على التفكير والفهم ويطالب بالنظر والتأمل ، ويدعو إلى البحث عن الدليل قبل الإيمان ، ويرفع من شأن العلم والعلماء .

ولم يَسْمُ إدراك قريش إلى هذا المستوى، ولم تدرك ما يراد له من كرامة ، وما يراد للإنسانية من رشد ، وللفكر من تحرر ، فجعلو من موضوع المعجزات معركة حامية ، واتخذوا منه دعامة لدعايتهم وتكذيبهم ، وقالوا : لو كان محمد رسولا حقاً من عند الله ، لأجرى على يديه المعجزات وخوارق العادات كدليل على صدقه وصدق ماجاء به ؛ ولكن موقف الرسول لم يتغير ، وظل طول العهد المكى يرد عليهم بلسان القرآن ويبين لهم عن الحكمة فى عدم إجابتهم لما يطلبون :

« وما مَنَعَنَا أنْ نُرسِلَ بالآياتِ إلا أنْ كذَّبَ بها الأَوَّلُونَ ، وآتَيْنَا ثَمُود الناقةَ مُبْصِرةً فظَلَمُوا بها ، وما نُرسِلُ بالآياتِ إلَّا تخويفًا (١) »

(١) آية ٥٩ من سورة الاسراء .

وبالغ المشركون فى تكذيبهم ودعايتهم ، وأوقفوا إيمانهم حتى يجابوا إلى ما يطلبون منها ، فتمنى المؤمنون أن يستجيب الله لهم ، ويؤيد رسوله ببعض المعجزات ، إنهاء لهذه المعركة ، فنزل القرآن يبين لهم أن المعجزات أمر هين على الله ، وأن طلب المشركين لها لحاجة لا دخل لها بالإيمان :

« وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهم لَئِن جاءَتْهُمْ آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها . قلْ : إنمَّا الآيات عِنْدَ اللهِ وما يُشْعِرُكم أنها إذا جاءَتْ لايُؤْمِنونَ (١) » .

وظل موقف القرآن من المعجزات كما هو لم يتغير ، رغم قسم المشركين ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية قومه ، تكاد تذهب نفسه عليهم حسرات ، فتمنى أن يجيبهم الله لسؤلهم علهم يؤمنون ، فعاتبه ربه عتاباً قاسياً ، ورده إلى منهج دعوته وطبيعة رسالته :

« وإنْ كانَ كَبُرَ علَيكَ إعراضهم فإنِ استَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فى الأَرضِ أَو سُلَّمًا فى السماءِ فتَأْتِيَهُم بآيةٍ ، ولو شاءَ اللهُ لجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ، فلا تكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ . إنما يَسْتَجِيبُ الذِينَ يَسْمَعُونَ ، والمَوْتَى يَبعَثُهُمُ اللهُ ، ثم إلَيْه يُرجَعُونَ (٢) » .

---

(١) آية ١٠٩ من سورة الانعام .

(٢) الآيتان ٣٥ و ٣٦ من سورة الانعام .

وفى الآيتين دلالة واضحة على تأكيد رفض فكرة المعجزات من الأساس ، كما أن فيهما إيحاء بأن المشركين ليسوا فى حاجة إليها ليؤمنوا ، إنما هم فى حاجة إلى أعين تبصر وتعتبر ، وآذان تسمع وتفهم، وعقول تفكر وتهتدى ، فهم أموات لا تجدى معهم المعجزات ، ومن ثم فقد رسم لهم القرآن منهج التفكير الصحيح الذى يصل بهم إلى الحق ، وهو التجرد من الهوى والتعصب ، والتفكير فى هدوء بعيداً عن اللجاجة والمراء :

« قلْ : إنَّما أَعِظُكُم بواحدة ، أَنْ تقُومُوا للهِ مَثْنَى وفُرادَى ثم تَتَفكَّروا ، مابِصاحِبِكم من جِنَّةٍ ، إنْ هُوَ إلَّا نَذِيرٌ لكم بَينَ يَدَى عذابٍ شَديد (١) » .

وكان المجتمع العربى من أعنف المجتمعات محافظة وتمسكا بالقديم، فى عقائده وعرفه وعاداته ، فكانت حجة المشركين التى يجادلون بها الرسول صلى الله عليه وسلم هى تمسكهم بموروثات الآباء :

« بلْ قالوا : إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمة وإنا على آثارِهم مُهْتَدُون . وكذلك مَاأَرْسَلنَا مِن قَبْلِكَ فِى قريةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلا قالَ مُتْرَفُوها : إنَّا وَجدْنَا آباءَنا على أُمَّة وإنا على آثارِهمْ مُقْتَدُونَ . قال : أَوَلَوْ جئْتُكم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُم عليهِ آباءَكم ؟ قَالوا : إنَّا بِمَا أُرسِلْتُم بهِ كَافِرُونَ (٢) » .

---

(١) آية ٤٦ من سورة سبأ .

(٢) الآيات ٢٣ — ٢٤ من سورة الزخرف .

وخطورة التقليد أن الأجيال تنشأ محافظة على القديم متمسكة به ، دون تفكير ، سواء كان صالحاً أم فاسداً ، كما تقاوم كل دعوة للإصلاح دفاعاً عن هذا القديم ، وفى ذلك تجميد للفكر وتعطيل لتطور الحياة ، ومن ثم هاجمه القرآن وحمل عليه حملة كبيرة ، ووجه العقول إلى التفكير والنظر والتأمل فى معجزات القرآن وبدائع صنع الله فى الكون ، وجاء القرآن معجزة مفتوحة خالدة ، ترى فيه الأجيال من المعجزات ودلائل الربانية ما يتفق مع علمها وإدراكها وحضارتها ، ولا تزال معجزاته باقية متجددة مع تقدم العلم واتساع آفاق التفكير .

معركة المساواة :

جاء الإسلام والتفاوت الفاحش بين الطبقات والأفراد هو الأساس الذى تقوم عليه المجتمعات ، بين ملوك زعموا أنهم من نسل الآلهة ، وبين طبقات تدعى القداسة والشرف ، وأخرى تعامل على أنها منبوذة دنسة ، وبين رقيق يشمل مجموعة هائلة من البشر ، لا كيان لهم ولا آدمية ، كما كان وضع المرأة كوضع الرقيق أو المتاع .

وكان المجتمع العربى يعانى ما تعانيه بقية المجتمعات ، فأعلن الإسلام وحدة الجنس البشرى كله فى أصله ونشأته ، وقرر أن الناس كلهم خلقوا من نفس واحدة ، فلا تفاوت بين جنس وجنس ، ولا بين طبقة وطبقة ، ولا فضل لإنسان على إنسان :

« وَهُوَ الذى أَنْشَأَكُم مِن نَفْسٍ واحدة فَمُستَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ

قَدْ فَصَّلنا الآياتِ لِقَوْم يَفْقَهُون (١) » .

« ومِنْ آياتِه خَلْق السمواتِ والأَرضِ ، واختلاف أَلْسِنَتِكُم وألوانِكم ، إنَّ فى ذلك لآيات للعالمِينَ (٢) » .

وأكد أن الصلة بين الإنسان وربه ليست فى حاجة إلى واسطة ، فقضى بذلك على سلطان السدنة والكهان الذين كانوا يتحكمون فى عقول الناس وعقائدهم :

« وقَالَ رَبُّكمُ ادعُونى أَستَجِبْ لكُم (٣) » .

« وأن المساجِدَ للهِ فلا تَدْعُوا معَ اللهِ أحدًا (٤) » .

كما قرر أن المرأة مخلوقة من جنس الرجل ، وأن العلاقة بينهما علاقة مودة ورحمة ، لا علاقة فاضل بمفضول ، ولا علاقة مالك برقيق أو متاع :

« ومِن آياتِه أَنْ خَلَقَ لكم من أَنفُسِكُم أَزْوَاجًا لتَسْكُنُوا إليها ، وَجَعَلَ بيْنَكم مَوَدَّةً ورحمةً ، إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يَتَفَكَّرُونَ (٥) » .

---

(١) آية ٩٨ من سورة الأنعام .
(٢) آية ٢٢ من سورة الروم .
(٣) آية ٦٠ من سورة غافر .
(٤) آية ١٨ من سورة الجن .
(٥) آية ٢١ من سورة الروم .

كما قضى على قيم الجاهلية الزائفة وموازينها الفاسدة ، فقرر أن الإنسان يرفعه إيمانه وعمله ، ولا يرفعه ماله وعصبيته :

« وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا »(١)

* * *

فلما أصبحت هذه المساواة واقعاً عملياً فى حياة الجماعة المؤمنة ، فزع منها السادة والزعماء وأنكروها ، وبدأوا فى مقاومتها والتنفير منها وحربها ، فطعنوا أولا فى اختيار محمد صلى الله عليه وسلم للوحى والرسالة ، وقالوا : لو بعث الله أحداً لاختار عظيما من عظماء مكة أو الطائف ، ولما فضل عليهم فقيراً ليس من السدنة والزعماء :

« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عظيم) (٢) » .

« وإذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إلا هُزُوًا ، أَهَذَا الذى بعثَ اللهُ رسولا ؟ ! (٣) » .

* * *

وكان حجر الأساس فى إقرار المساواة بين الناس ، هو إعلان

---

(١) آية ٣٧ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف .

(٣) آية ٤١ من سورة الفرقان .

بشرية الرسول ، فقد كانت الفكرة السائدة عن صفات الأنبياء مزيجاً من الألوهية والبشرية ، وارتفع معظم أهل الكتاب بأنبيائهم فوق مستوى البشر ، ونسبوا إليهم صفات وأعمالا تتنافى مع بشريتهم ، مما قضى على فكرة المساواة من الأساس ، ومن ثم فقد أكد القرآن بشرية محمد ، ونفى عنه كل ما يتنافى مع صفات البشر :

« قُلْ : لاأقولُ لكُم عِنْدِى خزائنُ اللهِ ولا أعلم الغَيبَ وَلاَ أقولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ اتَّبِعُ إلاَّ مايُوحَى إلىَّ ، قُلْ : هَلْ يَسْتَوِى الأَعمَى والبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرون[١] ؟ ! » .

« قُلْ : إِنَّمَا أنا بَشرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهكُم إلهٌ واحِدٌ[٢] »

وجعل المشركون من تأكيد القرآن لبشرية الرسول معركة عنيفة لا تقل عن معركة المعجزات :

« ومَا مَنَع الناسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُم الهُدَى إلا أَنْ قَالوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولا ؟ ![٣] » .

وشاء الله سبحانه أن يقر المساواة بين خلقه فى واقع الحياة مبتدئاً بشخص نبيه الكريم ، فاستمر القرآن فى تأكيد بشريته ، وخاصة فى المواضع التى فيها مظنة تقديس أو رفعة عن مقام العبودية .

فى مقام بعثته للعالمين يقول :

---

(١) آية ٥٠ من سورة الانعام .
(٢) آية ١١٠ من سورة الكهف .
(٣) آية ٩٤ من سورة الاسراء .

« تَبَارَكَ الَّذى نَزَّل الفُرقانَ عَلَى عَبْدِه لِيكون لِلْعالمِينَ نَذِيرا (١) » .

وفى مقام الإسراء يقول :

« سُبْحَان الذى أسرى بِعَبْدِه ليلاً مِنَ المَسْجدِ الحَرام إلى المسجدِ الأَقْصَى الذى بَارَكْنا حَوْلَه لنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (٢) » .

وفى مقام دعوته للجن يقول :

« وأنَّه لمَّا قَام عبدُ اللهِ يدْعُوه ، كادُوا يكُونونَ عليهِ لِبَدًا (٣) » .

* * *

ورفض سادة مكة وزعماؤها أن يجلسوا فى مجالس النبى للاستماع منه ، بحجة أنه يخالط المستضعفين والعبيد ، وطلبوا منه أن يجعل لهم مجلساً خاصاً ينحيهم عنه ، ترفعاً وأنفة وكبرياء ، فنزلت :

« واصْبِر نَفْسَكَ مَعَ الذِّين يَدْعُونَ ربَّهُمْ بالغَداةِ والعشِىِّ يُرِيدُون وجْهَهُ ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُريدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا ، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَع هَوَاهُ وَكَانَ أَمرُهُ فُرُطًا (٤) » .

---

(١) آية ١ من سورة الفرقان .

(٢) آية ١ من سورة الاسراء .

(٣) آية ١٩ من سورة الجن .

(٤) آية ٢٨ من سورة الكهف .

واستمرت محاولاتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، يريدون منه أن يعدل عن هذه المساواة التي تضر بأوضاعهم ومكانتهم فى المجتمع المكى ، فمروا به يوما وعنده بعض ضعفاء المسلمين فقالوا له :

يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فنزلت الآية :

« وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ والْعَشِىِّ ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَىءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِك عليهم مِنْ شَىءٍ فَتَطْرُدَهم فَتكُونَ مِنَ الظَّالمين (١) » .

* * *

وكان الإيمان بالله هو العامل الأول فى إقرار هذه المساواة فى أنفس المؤمنين وفى واقع الجماعة المؤمنة ، فالإيمان بإله واحد متفرد بالعظمة والكبرياء ، يجعل البشر كلهم أمام عظمته وكبريائه سواء ، فلا يستعلى أحد على أحد ، ولا يذل مخلوق لمخلوق ، وبهذا كان الإيمان تحريراً لوجدان الرقيق من الإحساس بالذلة والهوان ، ثم ساوى الرسول بينهم وبين مؤمنى قريش مساواة فعلية ، فكانوا إخوة متكافلين ، لا فرق بين حر وعبد ، ثم عمل بعد ذلك على تحريرهم تحريراً عمليا ، فانفق أبو بكر جانباً كبيراً من ثروته فى هذه السبيل ، حتى حرر معظم الأرقاء الذين دخلوا الإسلام فى هذا العهد ، رجالا ونساء .

(١) آية ٥٢ من سورة الانعام .

أسلحة المشركين

لم يكن هناك تكافؤ بين القوتين المتصارعتين فى مكة ، لا فى العدد ولا فى الجاه ، فقد واجه محمد قومه وحيداً فى أول الأمر ، وهم أصحاب القوة والسلطان ، ثم بدأ الإسلام يفشو وئيداً وتتكون جماعة مؤمنة متميزة على مهل ، وكان هدف المشركين من هذا الصراع هو القضاء على الدعوة أو — فى القليل — تجميدها داخل مكة حتى لا ينتشر الإسلام فى الجزيرة .

وكان موقف قريش يختلف اختلافا بيناً عن موقف الرسول والمؤمنين ، ذلك أن قريشاً كانت معتدية ظالمة فى كل مواقفها من الدعوة ، وكان عدوانها واضحاً على المؤمنين الذين كان موقفهم سلبياً من هذا العدوان ، ومن ثم فقد اختلفت أسلحة الفريقين فى هذا الصراع .

سلاح الدعاية :

من أهم أسلحتهم التى شهروها على الدعوة ، وقد ساعدهم على دعايتهم طبيعة المجتمع المكى ، فقد كان مجتمعاً مترفا فارغا ، يحافظ على جلساته الرتيبة المنظمة حول الكعبة فى كل يوم ، يجلسون جماعات يستمعون إلى القصص والأشعار والأخبار ، كما ساعدهم موسم الحج الذى يأتى فيه العرب إلى مكة من جميع أنحاء الجزيرة فى كل عام ، فيسهل الاتصال بهم وتبليغهم ما يريدون ، ثم يعودون إلى قبائلهم

بما سمعوا ، كما كان لزعامة قريش ومكانتها فى الجزيرة وظهورها بمظهر المحافظ الذى يدافع عن العقائد والتقاليد ، أكبر الأثر فى نجاح دعايتهم فى أول الأمر ، جمعهم الوليد بن المغيرة قبل الموسم وقال لهم :

يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً .

قالوا : نقول كاهن ؟

قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان وسمعنا منهم ، فما هو بكلامهم ولا سجعهم ؟

قالوا : فنقول مجنون ؟

قال : ما هو بمجنون ؟

قالوا : فنقول شاعر ؟

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، وما كلامه بشعر ؟

قالوا : فنقول ساحر ؟

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة وسحرهم ، وما هو بواحد منهم ؟

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا إنه ساحر ، جاء

بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته وعشيرته .

* * *

فتفرقوا بذلك ، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له من أمره :

* * *

وكان النضر بن الحارث على علم ببعض القصص وأخبار التاريخ ، فاذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً دعا فيه إلى الله ، خلفه النضر فى مجلسه ، وقال : إنما يحدثكم محمد بأساطير الأولين ، أنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم بما يعرف من قصص وأساطير ، ولما أرادت قريش أن تستعين فى دعايتها بأحبار اليهود ، بعثت بالنضر إلى المدينة ليسألهم عن خبر محمد ، فقال له الأحبار :

سلوه عن ثلاث ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فهو متقول : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى .

فلما سألته قريش ، نزل القرآن بالجواب ، فتناولت سورة الكهف قصة الفتية ، وقصة ذى القرنين ، وأجابت سورة الإسراء عن أمر الروح .

وكانوا يذيعون أن الرسول قد تعلم القرآن من رومى من أهل الكتاب يقيم بمكة ، فرد عليهم القرآن :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهم يقُولُون إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُون إليْه أَعْجَمِىٌّ ، وهذا لسانٌ عَرَبىٌّ مبِينٌ (١) » .

وتولى القرآن الرد عليهم فى كل ما كانوا يذيعونه أو يجادلون فيه ، فكان رسول الله يأتى إليهم فى مجالسهم حول الكعبة ، ويتلو عليهم ما ينزل عليه أولا بأول ، فتواصوا فيما بينهم ألا يستمعوا إليه ، وألا يمكنوا الرسول من تلاوته ، فكانوا يتفرقون عنه ، أو يعمدون إلى الشغب والتهريج .

سلاح المساومة :

لما وجد الزعماء أن الإسلام ينتشر رغم ما يبذلون من جهد فى مقاومته والصد عن سبيله ، وأن جماعته تكثر وتزداد تميزاً وقوة ، ورسول الله فى منعة من عمه ، بدأوا فى مساومته وإغرائه ليكف عنهم ويدع دعوته :

بعثوا إليه أحدهم : عتبة بن ربيعة ، ليعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فجاءه عتبة وقال : يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، فتلا عليه رسول الله سورة « فصلت » ، فقام عتبة إليهم ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

---

(١) آية ١٠٣ من سورة النحل .

قال : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم :

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

واجتمع الزعماء بعد ذلك عند الكعبة ، وبعثوا إلى رسول الله ، فلما جاءهم وجلس إليهم ، عرضوا عليه ما عرضه عتبة من قبل ، فقال لهم :

« ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على ، أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم » .

* * *

والراجح أنهم تعبوا من مقاومتهم للدعوة وملوا هذا الصراع ، فانهارت أعصابهم وأرادوا أن يصلوا مع الرسول إلى حل وسط تنتهى به المعركة ، وذلك أنهم كلموه يوما وهو بالكعبة فقالوا :

يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فان كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ،

وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه ، فتلا عليهم :

« قُلْ : يَـأَيُّها الكافِرُونَ . لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدونَ . وَلا أَنتُمْ عابدُونَ ما أَعْبُدُ . ولا أَنا عَابِدٌ مَاعَبَدتمْ . وَلا أَنتم عابِدُون ما أَعْبُدُ . لكم دِينكُم وَلِىَ دِينِ » .

سلاح التعذيب والمقاطعة :

كان أبو جهل إذا سمع بأحد من ذوى الشرف والمنعة قد أسلم ، ذهب إليه فأنبه وتوعده وقال له : تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به .

وأجمعت قريش على خطة منظمة فى تعذيب المؤمنين ، وذلك أن تقوم كل قبيلة بتعذيب كل من يدخل منها الإسلام حتى ترده عن دينه ، فكانوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر .

* * *

وكان عمار بن ياسر وأمه وأبوه من المستضعفين الذين اشتدت قريش فى تعذيبهم ، فكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم فى الرمضاء فيمر بهم رسول الله وهم فى العذاب فيقول لهم : صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة .

أما ياسر فقد مات فى العذاب .

وأما سمية فقد رفضت أن تقول كلمة الكفر فقتلوها .

وأما عمار فقد استمروا فى تعذيبه بالكى بالنار .

وكانت زنيرة كذلك من المستضعفات ، وقد كف بصرها من العذاب ، فقال لها أبو جهل : ما أذهب بصرك إلا اللات والعزى .

فقالت : كذبت ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان ، هذا أمر من السماء ، وربى قادر على أن يرد على بصرى .

فاشتراها أبو بكر وأعتقها ، ورد الله عليها بصرها .

وكان أمية بن خلف يخرج بلالا إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد .

فلا يزيد بلال عن قوله : أحد . أحد .

فيمر به القس ورقة بن نوفل فيقول : أحد . أحد والله يا بلال .

ومر به أبو بكر فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين ، حتى متى تعذبه ؟

فقال له أمية : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى .

فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

وقام أبو بكر مرة خطيبا فى المسجد الحرام ، يدعو إلى الإسلام ، فلما سمعته قريش تجمعت عليه ، وجعلوا يضربونه ضرباً موجعا حتى سقط مغشياً عليه ، وحمله قومه بنو تميم فى ثوب وهم لا يشكون فى موته ، ولم يفق إلا فى آخر النهار .

وذكر ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحق ، رواية تدل على مدى ضراوة المشركين فى تعذيب المؤمنين . قال : قلت لعبد الله بن عباس ، أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ما يُعذرون به فى ترك دينهم :

قال ابن عباس : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده :

* * *

ونزلت سورة البروج تواسى المؤمنين بقصة أصحاب الأخدود الذين أحرقوا بالنار لإيمانهم ، وتتوعد المشركين على ما فعلوا بالمؤمنين :

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ (١) » .

كما لجأت قريش إلى مقاطعة المؤمنين كسلاح من أسلحة المقاومة والتعذيب ، ليحملوهم على ترك الإسلام ويصدوا غيرهم عن الدخول فيه ، وكانت مقاطعتهم عامة ، فى التجارة والمعاملة والمصاهرة والنفقة ، وكانوا يقصدون إفقار المؤمنين وكساد تجارتهم وبوار بناتهم وتجويعهم ، وهو إسفاف فى الحرب وفجر فى الخصومة .

وعنفت المقاطعة وأخذت صورة جماعية منظمة ، حين أجمعت

---

(١) آية ١٠ من سورة البروج .

عليها قريش ، وكتبت بها صحيفة ، علقوها فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، فتضامن بنو هاشم وبنو المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانحازوا جميعاً إلى شعب أبى طالب وأقاموا به متكافلين .

واهتمت قريش بأمر هذه الصحيفة إهتماماً كبيراً ، وراقبت تنفيذ ما جاء بها حتى لا يصل إلى من بالشعب شىء من الزاد .

واستمرت المقاطعة ثلاث سنين ، لقى فيها المؤمنون كثيراً من العنت والبلاء ، حتى كان يسمع بكاء الأطفال وصراخهم من خارج الشعب من الجوع .

وأثارت هذه المقاطعة ثائرة نفر من زعماء قريش ، فاتفقوا فيما بينهم على نقضها ، وتجمعوا عند الكعبة وطالبوا برفع هذا الظلم ، ووقفوا فى وجه أبى جهل حتى مزقوها .

أسلحة الدعوة

القـرآن :

القرآن الكريم سلاح الدعوة الخالد ، وسر قوة المؤمنين على طول الزمان ، فهو الدستور الذى يحدد منهج الجهاد والدعوة ، ومنهج الدعاة للإسلام ، فصله الله على علم بالفطرة التى فطر الناس عليها ، لا يملك سامعه إلا التأثر به والإحساس بسلطانه وربانيته ، فلا غرو أن يملك على العرب مشاعرهم وقلوبهم ، وأن يتأثروا به جميعاً من اللحظة الأولى ، وأن يكون أعظم عامل فى إيمان الذين آمنوا فى هذا العهد .

لقد أحس الزعماء بما فى القرآن من سحر ، وتولاهم الذعر حين لمسوا تأثرهم وتأثر أتباعهم به ، ولم يملكوا مقاومته إلا بالمقاطعة والشغب ، فقال بعضهم لبعض : «لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لَعَلَّكُمْ تَغلِبونَ» ولكنهم لم يصبروا على هذه المقاطعة ، فقد روت كتب السيرة كيف كان زعماؤهم يتسللون فرادى يبيتون بجوار بيت محمد يستمعون إلى القرآن وهو يرتله فى جوف الليل ، وكانوا يجلسون خفية بين أستار الكعبة على مقربة منه وهو يتلو القرآن فى صلاته .

ولقد كان عمر بن الخطاب من أشدهم قسوة بالمسلمين ، لما علم باسلام أخته وزوجها ، ذهب إليها غاضباً محنقاً ، وبطش بها وشج أخته حتى سال الدم من وجهها ، فلما أمسك بالصحيفة وأخذ يتلو بعض آيات سورة طه ، فاضت عيناه ، ورق قلبه ودخله الإسلام .

ولما بعثت قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله يساومه على ترك دعوته ، لم يرد عليه صلى الله عليه وسلم بكلمة من عنده ، إنما تلا عليه سورة فصلت ، فكان لها تأثير السحر فى عتبة ، فلما بلغ فيها قوله : « فإنْ أعرَضُوا فقُلْ أنذرتُكُم صَاعقةً مِثْلَ صاعقةِ عادٍ وثمود »؛ قال له عتبة : حسبك، حسبك : ووضع يده على فمه،وناشده الرحم أن يكف ، ثم عاد إلى قومه مأخوذا، فقال لهم: لقد سمعت منه قولا ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، لقد أمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف ، مخافة أن ينزل بكم العذاب :

وجاء وفد من النصارى إلى مكة لمقابلة رسول الله ، فلما جلسوا إليه وسمعوا منه سورة يس ، أسلموا : والصورة المشرقة التى يعرضها القرآن لهم تدل على مدى نفاذه إلى قلوبهم وتأثيره فيهم :

« قلْ : آمِنوا بهِ أوْ لاتؤْمِنوا ، إن الذين أُوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّونَ للأَذقَانِ سُجدًا ، ويقولونَ : سبحانَ رَبِّنا ، إنْ كانَ وَعْدُ ربِّنا لَمَفْعُولا . ويَخِرُّون للأَذْقَانِ يبكون وَيَزِيدُهُمْ خشوعًا (١) » .

ومن هنا كان القرآن أمضى سلاح للدعوة ، وكان أمر الله لرسوله أن يجاهد به المشركين :

« فلا تُطِعِ الكافِرِينَ ، وجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهادًا كبيرًا (٢) » .

---

(١) الآيات ١٠٧ – ١٠٩ من سورة الاسراء .
(٢) آية ٥٢ من سورة الفرقان .

ولئن كان العرب الذين خوطبوا لأول مرة بالقرآن ، قد تأثروا بصياغته وبلاغته ، وعجزوا عجزاً كاملا عن تقليده أو مجاراة بعض آياته ، وهم أئمة اللغة وفرسان البيان ، فإننا نحن – فى هذا العصر – بعد أن بعد الكثير عن إدراك إعجازه البلاغى ، وبعد تقدم العلم واتساع آفاق الكشوف والفكر ، يمكن أن ندرك إعجازه وربانيته فى نواح أخرى غير ناحية الصياغة والتركيب ، مما يدل على أنه معجزة خالدة لكل العصور .

لقد أجهد الفلاسفة والمفكرون أنفسهم من قديم ، وحاولوا الوصول بعقولهم إلى تصور للوجود وتصور للخالق ، فاذا وازنا بين تراث الفكر الإنسانى كله الذى بين أيدينا فى هذا السبيل ، وبين ما جاء به القرآن ، أدركنا مدى الفارق الضخم بين صنع البشر وصنع الله ، وسلمنا فى يسر وهدوء ، أنه عمل فوق مستوى البشر ، ولا يمكن أن يقوم به إنسان واحد أو مجموعة من الفلاسفة والعلماء ، فضلا عن أن يكون لأمى من قوم لا صلة لهم بعلم ولا فلسفة .

وناحية أخرى من نواحى إعجازه تأخذ بالألباب ، وهى مدى عمقه فى فهم حقيقة النفس البشرية ، فان المتأمل فى آياته عنها ، وفى أسلوب خطابها والتأثير فيها والنفاذ إلى أعماقها ، وفى منهج تربيتها والتسامى بها ، لا بد أن يدرك أنه جاء على علم كامل بحقيقة هذه النفس ، مع أن العلم الحديث ما زال فى حيرة من أمرها ، لم يصل بعد إلى حقيقة علمية ثابتة عنها ، رغم تخصص العلماء والمفكرين فى جميع أنحاء العالم منذ عشرات السنين .

وإذا تأملنا النظام الكامل الذى جاء به القرآن لكل نواحى الحياة ووازناه بكل النظم والتشريعات السابقة عليه ، أدركنا أنه لم يأت مشابها لها ولا مقتبساً منها ، وأنه جاء جديدا فريداً غير مسبوق ، ولم يكن من وحى البيئة ، ولا نتيجة تطور أو صراع ، ولا أتت به ضرورة من ضرورات المجتمع ، ثم إذا وازناه بجميع النظم والمذاهب السياسية والاقتصادية المعاصرة ، وجدناه فريداً بينها جميعاً فى مبادئه وأهدافه وإنسانيته ، وذلك دليل على ربانيته وأنه جاء رحمة من عند الله لبنى الإنسان .

ثم كيف كان من الممكن أن ترتفع الدعوة إلى الإنسانية الواحدة من أمة متفرقة ممزقة ، لا تفكر حتى فى وحدة قبائلها ، ولا تعرف حكومة ولا دستورا ولا قانوناً ، وأن يخرج إنسان من هذه الأمة يدعو إلى وحدة الإنسانية ووحدة الأجناس والألوان والأمم والشعوب ، ومتى ؟ وهو محاصر مضيق عليه مطارد فى مكة ، ثم يأتى بعد ذلك بقانون دولى لم تستطع الإنسانية حتى الآن أن تصل إلى شعاع من نوره ، رغم اتصال العالم وحاجته الملحة إلى مثل هذا التشريع .

وكيف كان من المتصور أن تخرج الدعوة إلى العلم وتحرير الفكر الإنسانى من أمة أبعد ما تكون عن العلم وحرية الرأى ، وأن يقوم بهذه الدعوة ويجاهد فى سبيلها أمى ليس له سابقة فى دراسة ولا تعلم ، أو صلة بفلاسفة ولا علماء .

* * *

ولقد قام القرآن فى العهد المكى بما تقوم به الإذاعة والصحافة

فى العصر الحديث ، فلما أعلن المشركون على الدعوة حرب الدعاية ، تولى القرآن المعركة ، فرد على دعايتهم ، وأجاب عن أسئلتهم ، وهاجم عقائدهم وأوضاعهم الفاسدة ، كما هاجم الزعماء الذين تولوا كبر المقاومة ، وصورهم فى جهنم فى مشاهد ملأت قلوبهم رعباً ، وطامنت من كبريائهم ، وزلزلت عقائدهم وسلطانهم فى نفوس أتباعهم .

كان أبو لهب من زعماء قريش ، وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ، وأكثرهم تكذيباً له وصداً عن سبيله ، وكذلك كانت زوجته ، تقوم بالدعاية ضد الدعوة الإسلامية بين نساء مكة ، فنزلت فيهما سورة المسد:

« تَبَّتْ يَدَا أَبِى لهبَ وَتَبْ . مَا أَغْنِى عَنْه مَالُهُ ومَاكَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وامْرأتهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ . فِى جِيدِهَا حَبْلٌ من مَسَدٍ » .

وقد جعلتهما السورة سخرية أهل مكة ، فكانت الزوجة إذا رآها أحد ضحك منها ، فلم تستطع بعدها أن تغشى البيوت وتسعى بالدعاية كما كانت تصنع من قبل ؟

* * *

وكان أبو جهل أول من تعرض لرسول الله وهو يصلى بالكعبة ، وحاول منعه من الصلاة فيها وتوعده ، فنزلت فيه :

« أرأَيْتَ الَّذِى يَنْهى عبْدًا إِذَا صَلَّى ؟! أَرَأَيْتَ إنْ كانَ عَلَى الهدَىَ أَوْ أَمَرَ بِالَّتقْوَى ؟! أَرَأَيْتَ إنْ كذَّبَ وتَوَلَّى ؟! أَلَمْ يعلَمْ بأَن الله يَرَى ؟! كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لنَسفَعًا بالنَّاصِيَة .

نَاصِيَةٍ كَاذبة خَاطِئة فلْيَدْع نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزبَانِيَةَ . كَلاَّ لاَ تطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِبْ (١) » .

وزعيم آخر من زعمائهم الوليد بن المغيرة ، أو الأخنس بن شريق ، وكلاهما له دوره الطويل فى حرب الرسول والدعوة وتعذيب المؤمنين ومهاجمة القرآن ، فدمغه بتسع صفات كلها ذميم قبيح ، تكشف عن سريرته وسوء خلقه :

« وَلاَ تطِعْ كُلَّ حلاَّف مَهِينٍ . همَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَد أَثِيمٍ . عُتلٍّ بعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مالٍ وَبَنِينَ . إذا يُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا قَالَ : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ . سَنسِمُهُ عَلَى الخرْطوم (٢) » .

* * *

واستمر القرآن فى حملته العنيفة على زعماء الشرك، وكان المشركون يستمعون إلى آياته ويتناقلونها ويعلمون فيمن نزلت ، فاذا لاحظنا أن المجتمع العربى كان شديد التأثر والإهتمام بالكلمة البليغة ، بحيث كان البيت من الشعر يرفع قبيلة ويضع من شأن أخرى ، إذا لاحظنا هذا ، أدركنا مدى تأثير الحملة القرآنية فى المجتمع المكى وفى أشخاص السادة والزعماء وأوضاعهم ، وكيف كان كثير منهم يخشى رسول الله ويتحاشاه ويلاينه ، مخافة أن ينزل فيه قرآن يدمغه :

---

(١) الآيات ٩ ـ ١٩ من سورة العلق .

(٢) الآيات ١٠ ـ ١٦ من سورة القلم .

شخصية الرسول :

لم يجد خصوم النبي فى شخصه صلى الله عليه وسلم ثغرة يمكن أن ينفذوا منها إلى تجريحه أو إحراجه أو مهاجمته ولم يستطيعوا أن يحصوا عليه فى شبابه أو بعد بعثته موقفاً واحداً أو كلمة تناقض ما يدعو إليه أو تتنافى مع أخلاق القرآن : ورغم حربهم له ولدعوته لم يكن ينظر إليهم نظرة عداء أو كراهية ، بل كان كما حكى عنه القرآن تكاد نفسه تذهب عليهم حسرات ، يتمنى لهم الإيمان ، ويدعو لهم بالهداية ، ولم يقف شخصه قط حائلا بين أحد وبين الإيمان ، بل كانت عداوتهم للدعوة نفسها وإنكارهم لما جاء به القرآن وفزعهم من الإسلام :

والدعوة إلى الله موهبة وفن وعلم ، كما هى مشقة وتعب وعناء . وقد كان صلى الله عليه وسلم عارفاً بالنفس البشرية ، خبيراً بطب القلوب ، فاهماً رسالته ، مؤمناً بدعوته ، حليماً عظيم التحمل ، حلو الحديث ، محبباً إلى النفوس ، فما عرفه إنسان إلا أحبه ، وما آمن به أحد إلا آثره على نفسه ، وما عاداه إلا حقود مظلم النفس ممسوخ الضمير .

وكانت علاقته بالمؤمنين علاقة المربى والقائد والوالد والصديق ، وكان بهم كما وصفه القرآن رءوفاً رحيماً ، وكان لتفانيهم فى حبه وطاعته ، أكبر الأثر فى ثباتهم وتحملهم لمتاعب الدعوة وصبرهم على التعذيب ، كما كان لحكمته البالغة أثر كبير فى إنهاء العهد المكى بكل ما فيه من مثيرات دون صدام أو حرب بين جماعته وبين المشركين .

* * *

بلغت الدعوة فى أواسط العهد المكى إلى مرحلة كادت فيها أن

تتجمد داخل مكة ، ولا ينتشر الإسلام خارجها إلا قليلا ، ودل موقف الزعماء وإصرارهم على مقاومته أن المعركة بينهم وبينه سوف تطول ، وأن فى استمرار الدعوة على هذا الوضع تبديداً لطاقات المؤمنين وتعريضاً لكثير منهم للفتنة ، فضلا عن أنه جو لا يقبل على الإسلام فيه إلا الأقوياء الممتازون ، وهم قله نادرة فى كل مجتمع ، ومن ثم فقد وجه القرآن أنظار الرسول والمؤمنين إلى أرض الله الواسعة بعيداً عن مكة :

« قلْ ياعِبادِ الَّذين آمَنوا اتَّقُوا ربَّكُم ، للذين أَحْسَنُوا فى هذِه الدُّنيا حَسَنَةٌ ، وأَرضُ اللهِ واسعةٌ ، إنَّما يُوفَّى الصابرون أجْرَهم بِغَيرِ حِسَابٍ (١) » .

« يَاعبَادىَ الَّذِينَ آمنُوا إنَّ أَرْضِى واسعَةٌ . فإيَّاىَ فاعبُدون (٢) » .

فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم فى البحث عن مكان آخر غير مكة ، يعيش فيه المؤمنون فى أمن وطمأنينة بعيداً عن المحنة ، حتى اهتدى إلى الحبشة فأمرهم بالهجرة إليها .

وتبين عظمته فى تنظيمه الدقيق لحياة جماعته ، وتدبيره المحكم لكل مرحلة من مراحل حركته ، من خطواته التى اتخذها تنفيذاً لتوجيه القرآن وإذنه بالهجرة .

لماذا وقع إختيار الرسول على الحبشة بالذات لتكون دار هجرة لأصحابه ؟ وهل بعث بهم إليها دون إعداد واتفاق مع دولتها على قبولهم وترتيب إقامتهم فيها ؟

(١) آية ١٠ من سورة الزمر .

(٢) آية ٥٦ من سورة العنكبوت .

هل من المعقول أن يبعث الرسول بهذا العدد الكبير من المؤمنين ، إلى بلد بعيد ، وفيهم مؤمنات وأطفال من أكرم بيوت قريش ، دون أن يضمن لهم فيها حياة هادئة مطمئنة ، ودون أن يكون واثقا من أنهم لن يتعرضوا لمحنة من لون جديد قد تكون أقسى من محنة مكة ؟

الراجح الذى تطمئن إليه النفس ، أنه قد أعد لهجرة أصحابه إعدادا كاملا قبل أن يخرجوا من مكة ، حتى إذا وصلوا إلى الحبشة ، إستقبلهم ملكها أكرم إستقبال ، ووجدوا أنه قد أعد لهم وسائل إيوائهم ومعيشتهم وحمايتهم على خير وجه .

ولا شك أن اختيار الرسول للحبشة لتكون داراً لهجرة المؤمنين ، كان له علاقة وثيقة بوحدة الدين التى تربطهم بأهل الكتاب ، والتى جعلها القرآن أصلا من أصول العقيدة ، كما كان له علاقة بشخصية النجاشى وعقيدته ، فقد كان من الطائفة التى لا تقول بألوهية عيسى عليه السلام ، أو ببنوته لله تعالى ، بل كان يؤمن بأنه نبى ، وبأنه بشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فلما سمع ببعثة الرسول بمكة ، وقد كانت الصلة التجارية مستمرة بين البلدين ، بدأ فى الإتصال به ، وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم إليه من يدعوه إلى الإسلام أو يفاوضه فى هجرة أصحابه إلى بلده .

وقد ذكر ابن هشام فى سيرته رواية لها مدلولها فى هذا المقام ، قال :

« قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشه ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول

لكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله عالى : وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، م إستجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه ، اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر ن قريش ، فقالوا لهم :

خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حى فارقتم دينكم وصدقتموه ، ما نعلم ركباً أحمق منكم .

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً » .

وفى هذا الوفد نزلت الآيات :

« الَّذين آتَيْنَاهُمْ الكِتاب مِنْ قَبْله هُمْ بِهَ يُؤْمِنُونَ . وإذا يُتلَى عليهمْ قالُوا : آمَنَّا به إنَّهُ الحقُّ من رَبِّنَا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيْئَةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُون . وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عنْهُ وَقَالُوا : لنَا أَعْمَالُنَا ولَكُمْ أعمَالُكُمْ سَلامٌ عليْكُم لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ (١) » .

(١) الآيات ٥٢ — ٥٥ من سورة القصص .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره عن الوفد الذى نزلت فيه هذه الآيات قال :

« سألت الزهرى عن هذه الآيات : فيمن نزلت ؟

قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشى وأصحابه» .

ولو أن كتب السيرة لم تربط بين هذا الوفد وبين هجرة الحبشة ، إلا أن الظاهر أن قدومه إلى مكة كان له صلة وثيقة بهذه الهجرة ، وأنه جاء نتيجة اتصال الرسول بالنجاشى والإتفاق معه على إيواء المهاجرين .

ثم إن هجرة الحبشة كانت على دفعتين ، الدفعة الأولى من قلة فيها عثمان بن عفان وزوجته بنت رسول الله ، ولم تمكث بالحبشة إلا مدة قصيرة ثم عادت إلى مكة ، والغالب أنها كانت وفدا بعث به رسول الله لمقابلة النجاشى ، والإطمئنان منه على إستعداده لقبول المهاجرين ، ثم عاد الوفد إلى الرسول بما تم الإتفاق عليه ، فهاجر المسلمون بعد ذلك على هذا الأساس .

ثم إن الثابت أن النجاشى قد أسلم ، وأن شعبه ثار عليه بسبب إسلامه ، وأنه فى أثناء هذه الثورة بعث إلى جعفر بن أبى طالب أمير المهاجرين ، وهيأ لهم سفناً وقال لهم : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فان هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا ، وهو عمل يدل على إهتمامه الكبير بأمر المهاجرين ، وأنه لم يكن مجرد رئيس دولة قبل جماعة من اللاجئين إلى دولته ، إنما كان مؤمنا يعنى بسلامة إخوانه المسلمين ، فضلا عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يتزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان – إحدى المهاجرات –

عث إلى النجاشى مع أحد أصحابه يوكله فى هذا الزواج ، وقد قام
عقد العقد ، ودفع المهر نيابة عن الرسول ، وأولم للمؤمنين وليمة
كبيرة وأهدى إليهم الهدايا . ولما مات النجاشى ، صلى عليه رسول الله
صلاة الغائب بالمدينة ..

* * *

ونتساءل هنا عن الباعث الحقيقى لهذه الهجرة، هل كان لمجرد الفرار من الأذى والعذاب ؟

إن الذين هاجروا جميعاً إلى الحبشة كانوا جميعاً من ذوى القوة والمنعة ، الذين كان لهم من عصبيتهم ما يدفع الأذى عنهم إلى حد كبير ، أما الموالى المستضعفون الذين كانوا يتلقون معظم التعذيب ، فلم يهاجر منهم أحد ، وظلوا فى مكة حتى نهاية العهد ، وقد كانوا أحق بالهجرة والنجاة .

فلماذا هاجر الأقوياء وبقى المستضعفون إن كان الفرار هو الهدف من الهجرة ؟ .

ولماذا هاجر نساء من بين أشراف قريش ، ولم تتعرض إحداهن لأذى أو فتنة ؟

ولماذا هاجر أبو موسى الأشعرى ومؤمنو اليمن ولحقوا باخوانهم بالحبشة ، وقد كانوا بعيداً عن مكان المعركة ، ولم يثبت أنهم تعرضوا لمحنة ، أو وقع عليهم تعذيب ؟

ولماذا بقى معظم المهاجرين بالحبشة ومنهم جعفر حتى السنة السابعة من الهجرة ، بعد أن أصبح للإسلام دولة قوية بالمدينة ، وقويت فيها شوكة المسلمين ؟

الواقع أن هذه الهجرة لم تكن لمجرد الفرار والنجاة ، إنما كانت أولى محاولات الرسول المتكررة ، التي بذلها في البحث عن مكان آمن ، عن قاعدة جديدة ، يتجمع فيها المؤمنون وتصلح مركزاً جديداً لدعوته يقيم فيها مجتمعه ودولته .

ولعل التفسير المعقول لبقاء عدد كبير من المهاجرين بالحبشة حتى السنة السابعة من الهجرة ، أن الرسول كان يهدف إلى إبقاء عدد كبير من المؤمنين بعيداً عما يتعرض له أصحابه في المدينة نتيجة حرب المشركين واليهود ، وأراد أن يحتفظ بهذا العدد في الحبشة رصيداً سالماً مؤمَّناً لما لما تسفر عنه الأحداث ، وقد كانت عودتهم إلى المدينة فعلا بعد عهد الحديبية ، أي بعد انتهاء الحرب بين المسلمين ومشركي قريش ، وبعد الإنتهاء من أمر اليهود .

* * *

وكان في دعوته صلى الله عليه وسلم لقبائل العرب في مواسم الحج ، ومقابلته لوفود الحجاج ، وعرض نفسه ودعوته عليهم ، ما يدل على أنها كانت بدورها محاولات للبحث عن قاعدة جديدة ، يبين ذلك من عبارات دعوته لتلك الوفود ، فقد كان يطلب من كل منها حمايته ونصرته حتى يبلغ رسالة ربه .

* * *

ثم كان ذهابه إلى الطائف إحدى هذه المحاولات ، فقد كان يطمع في إسلام ثقيف ومنعتهم وحمايتهم لدعوته ، والواقع أن الطائف كانت

تصلح قاعدة قوية لو آمنت ثقيف ، ولكنهم كذبوه وردوه رداً غير كريم، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، فخرج منها حزيناً عائدا إلى مكة .

* * *

وقبل الهجرة إلى المدينة بعامين ، إلتقى فى موسم الحج بجماعة من أهلها ، فعرض عليهم الإسلام ، فآمنوا وقالوا له : إننا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فان يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك .

فلما كان الموسم التالى، حضروا ومعهم جماعة من الأوس والخزرج ، بايعوا رسول الله بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم مصعب بن عمير ليدعو إلى الإسلام بالمدينة .

وفى الموسم التالى ، أقبلت جماعة كبيرة مسلمة ، بايعهم رسول الله على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم حين يقدم إليهم ، ثم عادوا إلى بلدهم وأعدوها دار هجرة للنبى وأصحابه ، وكانت المدينة هى القاعدة التى رضيها الله لدعوته .

هذه محاولات بذلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البحث عن قاعدة للدعوة ، وهى محاولات قوية جريئة ، تكشف عن بعض جوانب شخصيته وبعد نظره ودقة إعداده وعظمة حكمته فى قيادة حركته .

* * *

ولقد كان موقفه صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش موقفاً عظيماً ، ويكفى أنه كان يقوم بتلاوة القرآن عليهم فى مجالسهم حول الكعبة ، وفيه الآيات التى تهاجم عقائدهم وتسفه أحلامهم ، والآيات التى

تقذف بالحمم فى وجوه زعمائهم ، وقد كانوا يضيقون بذلك أشد الضيق كما يصورهم القرآن :

« وإنْ يَكَادُ الذِّينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بأَبْصَارِهِمْ لمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ، ويَقُولُونَ إنَّه لَمجْنُونٌ (١) » .

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يكَادونَ يَسْطُونَ بالَّذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا (٢) . »

وقد تحمل الرسول هذه المواقف وحده طول العهد المكى ، وجنب أصحابه جميعاً هذا العنت ، بل إنه بعث بالأقوياء منهم إلى الحبشة ، وبقى مع المستضعفين ، ووقف وحده فى مواجهة قريش ، وتلك ناحية أخرى من نواحى شخصيته ، كان لها أكبر الأثر فى انتصار الدعوة فى هذا العهد .

* * *

ولئن كان عمه أبو طالب يمنعه ويذود عنه ويحول بين قريش وبين الوصول إليه بأذى ، فقد كان صلى الله عليه وسلم كذلك فى منعة شخصيته القوية المهابة ، وقد روت كتب السيرة أخباراً كثيرة تدل على أن زعماء مكة ما كانوا يستطيعون أن يواجهوه بشئ يكرهه ، وأنهم كانوا كلما واجهوه يترضونه ويناشدونه الرحم ، وحادث واحد بينه وبين زعيمهم أبى جهل بن هشام ، فيه دلالة كافيه على عظيم تقديرهم له وخشيتهم منه :

« قدم رجل من إراش بإبل له بمكة ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الإراشى حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله جالس فى ناحية من المسجد ، فقال : يا معشر قريش ، من رجل

---

(١) آية ٥١ من سورة القلم .

(٢) آية ٧٢ من سورة الحج .

يؤدينى على أبى الحكم بن هشام ؟ فانى رجل غريب ، وقد غلبنى على حقى ، فقالوا له : أترى ذلك الرجل الجالس ؟ — يريدون رسول الله ، وهم يهزأون ، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة — إذهب إليه فانه يؤديك حقك .

فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ، فقال : يا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام غلبنى على حق لى قبله ، وأنا رجل غريب ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه ، يأخذ لى حقى منه ، فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حقى منه يرحمك الله .

فقال له : إنطلق إليه ، وقام معه رسول الله ، حتى جاء بيت أبى جهل فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ، قال : محمد ، إخرج إلى .

فخرج أبو جهل كانما سلبت روحه ، قد امتقع لونه ، فقال له : أعط هذا الرجل حقه .

قال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذى له .

فلما علمت بذلك قريش عجبت وقالت لأبى جهل : ويلك ، ما لك ؟ والله ما رأينا مثل ما فعلت قط ؟

قال ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعباً (١) .

* * *

ولقد كان لموقف المؤمنين من المحنة ، وفهمهم وإيمانهم بدعوتهم ، وثباتهم وتحملهم لكل صنوف الأذى والعذاب ، وبذلهم لكل ما يملكون ، وحبهم وطاعتهم لرسولهم ، آثارها الواضحه العميقة فى سير الدعوة وانتصارها فى هذا العهد .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠ .

ب ـ جهاد التربية

من جوف الصحراء ، ومن قبائل متنافرة لم تعرف وحدة ولا نظاماً ، ولم تخضع لحكومة ولا قانون ، ولم يكن لها علم ولا حضارة ، تكونت أمة قوية موحدة ، ذات دستور ودولة ، وذات نظام وقيادة ، فحملت أمانة الدعوة ، وكانت أهلا لقيادة البشرية فى طريقها إلى الله ، وأصبحت مثلا فريداً فى تاريخ الأمم والحضارات .

لم توجد هذه الأمة عفواً ولامصادفة ، ولم تظهر فجأة دون تكوين وإعداد ، إنما أخرجت إخراجاًكتعبير القرآن العميق ، وتطلب تكوينها كثيرا من العنت والمشقة والجهاد ، حتى وصلت إلى سماتها المميزة التى يلخصها القرآن فى العمل لخير الإنسانية والإيمان بالله :

« كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرجَتْ للناسِ تأْمُرُونَ بالمعرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ (١) » .

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكوين هذه الأمة بمكة ، فربى مجموعة من المؤمنين ، كانت نواة لمجتمعه الجديد ، وحين بدأ فى تكوين هذه النواة المؤمنة ، كان يعلم أن مهمته أكبر من مكة ومن الجزيرة ، وأن رسالته ليست خاصة بأمة من الأمم ، ولا وقفاً على جيل من الأجيال ، إنما كان يعلم أن رسالته عالمية ، هدفها القضاء على أسس الجاهلية المتعفنة ، وبناء إنسانية جديدة وفق مبادئ القرآن .

---

(١) آية ١١٠ من سورة آل عمران .

وحين اتخذ مكة مركزاً لدعوته ، لم يكن فى حسابه قط أن يبدأ باقامة دولة من زعماء قريش ، يخضع بها العرب ثم يفرض مبادئه بقوة السيف والسلطان ، ولو اختار هذه السبيل ، لما وجد معارضة أو مقاومة أو مشقة كبيرة ، ولما بذل بعض ما بذله من جهد ، ولما تحمل المؤمنون بعض ما تحملوا من بلاء ، ولوجد طريقه سهلة ميسرة ، ولكنه لم يبعث ليقضى على فساد بفساد ، ولا ليفرض دعوته بالقسر والإكراه ، إنما بعث ليبلغ رسالة ربه ، ويدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، ثم يصبر نفسه مع الذين يؤمنون ليكون منهم جماعة تصلح لأن تكون أساساً مؤمناً لمجتمع جديد .

إن الإسلام عقيدة وخلق ، أو إيمان وسلوك ، ووسيلته الأولى هى التربية العميقة الهادئة ، التى تصل بالمؤمنين به إلى التخلق بأخلاق القرآن وتطبيق مبادئه فى المجتمع ، ثم الدعوة إليها والتمكين لها بين الناس .

ومن ثم فقد بدأ الرسول جهاده فى ميدانين : ميدان الدعوة وميدان التربية ، ولئن كانت كتب السيرة لم تحدثنا عن جهاده الطويل فى تربية أصحابه ولا عن أسلوب هذه التربية ، ولم يصلنا إلا بعض روايات وأخبار متفرقة لا تعطى فكرة ولا تكون منهجاً واضحاً ، إلا أن القرآن قد أوفى فى ذلك على الغاية ، مما يجعلنا نعتمد عليه فى تكوين فكرة واضحة عن جهاد التربية فى هذا العهد .

* * *

تربية الوجدان :

من أروع ما يدهش المتأمل فى سيرة الجماعة الأولى : أن أفرادها

جميعاً كانوا جادين كل الجد فى إسلامهم ، فلا مجاملة ولا مداهنة للجاهلية ، ولا التقاء معها فى طريق ، بل مناضلة كاملة لكل ما فيها من أهل وعقائد وأوضاع وتقاليد ، وتحمل فى سبيل الإيمان للمحن والبلاء ، وبذل للدم والمال ، وتضحية بالأهل والوطن .

لقد كان إقرار أحدهم بشهادة الإسلام ، حداً فاصلا بين مرحلتين متميزتين من حياته ، كأنما خلق خلقاً جديداً فتغير فيه كل شئ : عقيدته وخلقه وتفكيره وسلوكه ، وإذا به إنسان جديد لا يمت إلى جاهلية الأمس بصلة ولا نسب ، وكأنما هو المعنىّ بقول القرآن :

« أَو مَنْ كانَ مَيْتًا فأَحْيَيْنَاه وجَعَلْنَا له نُورًا يمشِى به فى النَاسِ كَمَنْ مثَلهُ فى الظُلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ؟ كذلك زُيِّنَ للكافرينَ ما كانوا يعملون (١) » .

فهل كانت معجزة خص بها محمد من دون الناس لا يمكن أن تتيسر لجيل بعده من الأجيال ؟ أم هو أمر طبيعى له أسبابه ودواعيه ؟

الواقع أن هذا الذى حدث للرعيل الأول لم يكن معجزة أجراها الله على يد رسوله ، إنما هو النتيجة العملية للإيمان بعقيدة الإسلام كما جاء بها القرآن ، وهى كفيلة بإعطاء نفس النتائج لأى فرد أو جماعة أو أمة إذا توفرت لها نفس أسباب الجد والإيمان والتربية .

إنها عقيدة بانية متحركة ، لا يؤمن بها إنسان عن فهم وإدراك ومعرفة ، حتى تنقله من حياة إلى حياة ، وتحدث فى نفسه انقلاباً كاملا :

---

(١) آية ١٢٢ من سورة الانعام .

فى خلقه وسلوكه ، وفى تفكيره ومعرفته ، وفى تصوره للكون ونظرته للحياة .

فليست الوثنية بشتى صورها مجرد أسلوب تعبدى خاطئ ، إنها لكسة إنسانية تمتد بالفساد إلى جميع نواحى الحياة ، فتجعل الإنسان مسخاً محجوب الفطرة ، عاطل التفكير ، فاسد الضمير ، يعيش حياته عبداً لجماعة من السدنة والكهان ، أسيراً لمجموعة من الخرافات والأوهام ممزق النفس بين شتى الآلهة والأرباب ، وهى لا تسود إلا فى ظلمات الجهل والجمود ، ومن ثم كانت حربا على العلم والتفكير ، حربا على الحرية والنور ، حريصة على التقليد عدوة لكل إصلاح ، ومن هنا كانت عناية الإسلام البالغة بالتوحيد ، وإصراره على القضاءعلى كل مظاهر الشرك فى النفس والمجتمع .

* * *

وأول خطوة للإسلام فى هذه السبيل ، هى رد الإنسان إلى فطرته ، الفطرة الإنسانية التى فطره الله عليها ، وذلك أن الله أودع فى كل إنسان معرفته والركون إليه والالتجاء إلى عونه وقوته ، وهذه الخاصية أو الموهبة أو الغريزة ، أعنى الفطرة ، ثابتة فى النفس البشرية ، تنتقل سليمة نقية من جيل إلى جيل ، لا تفسد ولا تنحرف ، إنما ينحرف السلوك الذى يصدر عنها ، ويفسد أسلوب إشباعها ، أما الطاقة الدافعة لهذا السلوك ، فتبقى سليمة ، فيولد كل مولود على الفطرة ، فيه قابلية للتأثر بالبيئة والتربية ، وكل مظاهر الشرك والإلحاد والتقديس والعبودية لغير الله ، سلوك منحرف وإشباع خاطئ لهذه الفطرة ، جاء نتيجة التأثر بالبيئة وتوجيه التربية .

وهذه الفطرة ليست فى حاجة إلى إقامة دليل على وجودها ، فالدليل عليها موجود فى كل نفس ، والبرهان عليها ينبعث من إحساس كل إنسان .

لم يعرف التاريخ أمة على وجه الأرض ، بدائية كانت أم متحضرة ، إلا كانت لها عقيدتها ومظاهر عبادتها ، سواء كانت صحيحة أو خاطئة ، ربانية أو منحرفة ، ولا يرجع ذلك إلى عامل الخوف من مظاهر الطبيعة كما يذهب بعض العلماء ، فانسان المدينة الحديثة قد تحرر تماما من هذا الخوف ، ولم يتحرر من دافع هذه الفطرة ، وهو مهما تنكر للدين ، أو أنكر البعث والجزاء ، أو كفر بالله ، فانه يتردى فى وثنية حديثة ، ويعبد أصناماً شراً من أصنام الجاهلية الأولى ، بين عبادة العقل والإنتاج حيناً ، وبين عبادة القادة والزعماء تارة ، وبين عبادة الهوى والشهوات فى معظم الأحيان ، وذلك لأن فطرة التدين فيه أقوى من عقله وعلمه ، وأقوى من نظمه وهواه ، فلا مفر من إشباعها على صورة من الصور مهما عاند وكابر .

وقد جاء القرآن بحقيقة الفطرة ، فعاد بالإنسان إلى أصله السليم ، وطهره من الفساد والانحراف ، وحرره من الخوف والذل ، وعصمه من الحيرة والقلق :

« وإذْ أَخَذَ ربُّك مِنْ بَنِى آدم مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهم وأَشْهَدَهُم على أنفسِهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُم ؟ قالوا : بلَى شَهِدْنا . . . أَنْ تَقُولُوا يومَ القِيامَةِ إنا كُنا عَنْ هذا غَافِلِين (١) » .

---

(١) آية ١٧٢ من سورة الاعراف .

وأقام الدليل على وجودها من داخل النفس ، فكل إنسان يحس أنه في حاجة إلى قوة أكبر من قوته يركن إليها ويعتمد عليها ويدعوها ويستمد منها القوة والعون ، ومهما انحرف بهذا الإحساس إلى غير ربه وقت العافية والرخاء ، فانه في وقت الشدة والبلاء ينكشف عن فطرته كل ما ران عليها من حجب ، فاذا أحس بخطر ، واقترب من الهلاك ، تفتحت نفسه ، وزالت الغشاوة التي كانت على بصيرته ، ونسي كل ما كان يدعو من قبل من دون الله ، وتوجه مخلصاً إلى القوة المعينة التي فطر على الالتجاء إليها — إلى الله — فسأله العون والمخرج والنجاة :

« هو الذى يُسَيِّرُكُم فى البَرِّ والبَحْرِ ، حتى إذا كُنْتُم فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طيِّبَةٍ وفَرِحُوا بها جاءَتْها رِيحٌ عَاصِفٌ وجَاءَهم الموجُ منْ كلِ مكانٍ وظَنُّوا أَنَّهم أُحِيطَ بِهم ، دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ لهُ الدِّينَ لئنْ أنجيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكرِين . فلمَّا أَنْجاهُم إذا هم يَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ (١) » .

* * *

وفطرة التدين فى النفس الإنسانية فى حاجة إلى إبانة وتعريف ، تعريف بالله سبحانه ، وتعريف بعلاقته بخلقه ، وتعريف بنواميس الكون وسننه ، وتعريف بنشأة الحياة ومصيرها ، وتعريف بالوجود وحكمته وغايته ، فلا يمكن أن يستقر الضمير الإنسانى إلى قرار فى حياته وفكره ، حتى يطمئن إلى معرفة صحيحة بربه ، وصفاته

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وعلاقته بخلقه ، وقد أرسى القرآن قواعد هذه المعرفة على أسس ثابتة واضحة ميسرة ، حتى يكون الإيمان عن فهم ومعرفة ، وحتى يطمئن الإنسان إلى كنف ربه وعونه ، وتكون عبادته على علم ويقين .

فالله لم يتخذ ولداً وليس له فى ملكه معين و لا شريك ولا مشير ، وعلاقته بكل مافى الوجود تتلخص فى إرادته الطليقة من كل قيد ، فاذا توجهت إرادته إلى شيء كان كما أراد :

« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون [1] » .

والله خالق الكون ومالكه ، كل مافيه مسير وفق أمره وتدبيره ، خاضع لنظمه وقوانينه ، وهو الذى يعطى ويمنع ، وهو الذى يحيي ويميت :

« لهُ مقاليدُ السمواتِ والأَرضِ ، يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ ويَقْدِرُ ، إنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ [2] » .

« ربِّ السمواتِ والأَرضِ وما بينَهمَا إنْ كنتم مُوقِنينَ : لاإلهَ إلا هوَ يُحْيِي ويُمِيت ، رَبُّكمُ وربُّ آبائِكم الأَولين [3] » .

« قال : ربُّنا الذى أعطَى كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدَى [4] » :

وهذه الأرباب التى يعبدها الناس من دون الله عاجزة لاتخلق شيئاً ، ضعيفة لاتستطيع نفعاً ولا ضراً :

« إنَّ الذين تَدْعُون من دُون الله لَنْ يَخلقوا ذبَابًا ولو اجتَمعوا

(١) آية ٨٢ من سورة يس .

(٢) آية ١٢ من سورة الشورى .

(٣) الآيتان ٧ — ٨ من سورة الدخان .

(٤) آية ٥٠ من سورة طه .

له ، وإن يَسلبْهم الذُّبابُ شيئًا لا يستنقِذوهُ منه ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب (١) » .

والله مطلع على كل مافى الوجود ، عليم بكل مافى السموات والأرض ، يستوى فى علمه السر والعلن ، والغيب عنده كالشهادة ، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء :

« وعِنده مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلا هو ، ويعلم مافى البَر والبَحر وما تَسقط مِنْ وَرَقَة إلا يعْلَمُها ، ولا حَبَّةٍ . فى ظلماتِ الأَرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلا فى كِتابٍ مُبين (٢) » .

« وما تكون فى شَأْنٍ وما تَتْلو مِنه مِنْ قُرآن ولا تعمَلُون مِن عَمَل إلا كُنا عَليْكم شُهُودًا إذْ تُفِيضُون فيه ، وما يَعْزُبُ عن ربِّك مِنْ مِثقَال ذَرَّة فى الأَرضِ ولا فى السماءِ ، ولا أَصغَرَ مِنْ ذلك ولا أَكبَر إلا فِى كِتابٍ مُبين (٣) » .

والتربية على أساس هذه المعرفة العميقة لصفات الله ، والإيمان الكامل بقدرته وتدبيره ، والإحساس الدائم برقابته ، هى السبيل لتحرير الوجدان من الخوف والذل ، وإيجاد الضمير المرهف الذى يحاسب صاحبه على كل قول وعمل ، ويحول بينه وبين المعصية والزلل ، وهو أقوى فى نفس المؤمن من سلطان الدولة ، ومن خشية القانون والعقاب .

* * *

(١) آية ٧٣ من سورة الحج .
(٢) آية ٥٩ من سورة الانعام .
(٣) آية ٦١ من سورة يونس .

ثم إن الإنسان ليشقى ويصاب بالحيرة والقلق حين يعتقد أن الدنيا هى غاية وجوده ، وأن عمره القصير المحدود هو نهاية المطاف ، والإسلام لايريد للإنسان أن يقلقه الشك والشقاء ، وإنما يريد له أن ينطلق فى حياته قوياً على هدى وبصيرة ، ومن ثم طمأنه على أصله ومصيره ، وبين له حقيقة وجوده وغايته .

فهو لم يوجد على هذه الأرض مصادفة ، ولا ظهر فيها نتيجة تطور الحياة والأحياء ، إنما خلقه ربه عن قصد وحكمة ، وكرمه فى خلقه فنفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته :

« وإذْ قال رَبُّك للملائكةِ إنى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَال من حَمَأٍ مَسْنُون . فإذا سويْتُهُ ونَفَخْت فيهِ من رُوحِى فَقَعُوا له سَاجِدِينَ (١) » .

ولم تكن نشأة الحياة على الأرض فلتة عابرة ، إنما كانت بدورها عن قصد وتدبير ، فالله هو الذى هيأها للحياة ، وقدر كل مافيها ليتجاوب مع طبيعة الإنسان :

« هو الذى جعل لكم الأَرضَ ذَلولًا فامشوا فى مناكبها وكلُوا من رِزْقِهِ وإليه النُّشور (٢) » .

والحياة على الأرض هى مرحلة التكليف والعمل ، ثم تعقبها مرحلة الحساب والجزاء :

---

(١) الآيتان ٢٨ — ٢٩ من سورة الحجر .
(٢) آية ١٥ من سورة الملك .

« الذى خَلَق الموتَ والحياةَ ليبلُوَكُم أيُّكم أحسن عَمَلا ، وهو العزيز الغفورُ (١) » .

والموت نقلة من حياة إلى حياة ، وليس فناءً ولا نهاية للوجود ؛

« الذين تَتَوَفَّاهم الملائكةُ طَيِّبِين ، يقولون : سلامٌ عليكم ، ادخلوا الجنةَ بما كُنْتُم تَعْمَلون (٢) » .

والإنسان يملك أن يتصل بربه ، ويستمد منه القوة والعون متى شاء دون وساطة ولا شفاعة ولا قربان :

« وقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لكم(٣) » .

« أمَّن يجِيب المضطرَّ إذا دعاهَ ويَكْشِفَ السُّوءَ ويَجعَلكم خلَفَاءَ الأَرضِ ، أإله مع الله ؟ قليلًا ماتَذَكَّرون (٤) » .

فصفاته ليست صفات سلبية كما تصورتها فلسفة اليونان ، ولكنها صفات إيجابية فعالة ، فليس فى الوجود قوة مع قوته ولا تدبير مع تدبيره ، فهو الذى يجيب ويعطى ، وهو الذى يخلق ويرزق ، وهو الذى يمنح ويمنع ، وهو الذى يميت ويبعث ، وهو الذى يكشف الضر ويرفع البلاء .

وصلة المؤمن بربه على هذه الصورة ، هى سر قوته ، لأنه

---

(١) آية ٢ من سورة الملك .

(٢) آية ٣٢ من سورة النحل .

(٣) آية ٦٠ من سورة غافر .

(٤) آية ٦٢ من سورة النمل .

موصول بالقوة الواحدة التي لاتغلب ، موكول إلى المدد الفياض الذى لايتأخر ولا ينفد ، فلا يحس فى حياته وجهاده بضعف ولا ضياع :

وهذا العون الذى يستمده من ربه ليس بالأمانى ولا بالخيال .
ولكنه ظاهرة من ظواهر الكون ، وسنة من سنن الوجود ، فالمؤمنون فى رعاية الله وكنفه ، يحفظهم فى الدنيا ويكرمهم فى الآخرة :

« إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقامُوا تَتَنزَّل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشرُوا بالجنَّةِ التى كنتم توُعَدُون . نحن أولياؤُكم فى الحياةِ الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتَشْتَهِى أنفسُكُم ولكم فيهاماتدَّعُون (١) » .

ونصر المؤمنين مؤكد ، ضمنه وأكده الله ، ماستمسكوا بهديه وساروا على منهجه ، حتى ولو كانوا قلة مستضعفة :

« وكان حَقًّا علينْا نصرُ المؤْمنين (٢) » .

« إنا لنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنُوا فى الحياةِ الدنيا ويومَ يَقومُ الأَشْهَاد (٣) » .

« ونريدُ أنْ نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا فى الأرضِ ونَجْعَلَهم أئمةً ونَجْعَلَهم الوارثين (٤) » .

---

(١) الآيتان ٣١ – ٣٢ من سورة فصلت .

(٢) آية ٤٧ من سورة الروم .

(٣) آية ٥١ من سورة غافر .

(٤) آية ٥ من سورة القصص .

ونواميس الكون وأسباب الحياة الظاهرة طوع أمر الله ورهن اشارته ، إن شاء غيرها نصراً لعباده المؤمنين :

« قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم (١) » .

« فَدعَا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصِر . فَفَتَحْنا أبوابَ السماءِ بماءٍ مُنْهَمِر . وفجَّرنا الأرضَ عُيونًا فالتقَى الماءُ على أمْرٍ قدْ قُدِر . وحَمَلْنَاه عَلى ذاتِ ألْواح ودُسُر . تَجْرِى بأَعْيُنِنَا جزاءً لِمنْ كان كَفِر . ولقد تَركْنَاها آيةً فَهلْ من مُدَّكِر ؟ (٢) » .

* * *

ومع هذه القوة المعينة الناصرة ، يربى الإسلام المؤمن على أنه على الحق ، يدعو إليه ويجاهد فى سبيل نصرته والتمكين له فى الأرض ، ويملوه يقيناً بأن هذا الحق أصيل فى تصميم الوجود ، وأن الباطل غريب عن طبيعة الكون ، لاظهور له ولا بقاء ، مهما كانت قوته ومظاهر جبروته :

« وَبالحقِّ أنزَلْنَاه وَبالحقِّ نَزَل ، وما أرسلْنَاكَ إلا مُبَشِّرًا ونذِيرا (٣) » .

« بل نَقْذِفُ بالحَقِّ على الباطِلِ فَيدْمَغه فإذَا هُوَ زاهِقٌ ولكُم الوَيْلُ ممَّا تصِفون (٤) »

---

(١) الآيتان ٦٨ — ٦٩ من سورة الانبياء .
(٢) الآيات ١٠ — ١٥ من سورة القمر .
(٣) آية ١٠٦ من سورة الاسراء .
(٤) آية ١٨ من سورة الانبياء .

وحسب المؤمن بهذا اليقين قوة إلى قوته ، حتى ينطلق فى كفاحه لايرهب قوة من قوى الباطل حتى ولو كان وحده فى المعركة .

* * *

وهكذا يسير الإسلام فى إعداد الجندى المؤمن ، فيرده بالتوحيد إلى فطرته ، ويحرر وجدانه من الذل والخوف ، ويصله بربه صلة مباشرة يستمد منه العون والتأييد والقوة ، ويربطه بالحق الذى قامت به السموات والأرض ، ويضمن له النصر والتمكين فى الحياة الدنيا إن عاش ، ونعيم الجنة الخالد فى الآخرة إن مات ، وبهذا يحس المؤمن أن حياته كلها معركة ، وأنه فيها مجاهد من جنود الحق ، وأنه ليس مسئولا عن النصر ، لأن النصر بيد الله وقد تكفل له به ، إنما هو مسئول عن تمسكه بالحق وقيامه به ، فذلك وحده سبيل النصر ، وسبب العون والتأييد ، وذلك سر قوة عقيدة الإسلام ، وقوة المؤمنين بها ، وسر نجاح رسول الله فى تربية الرعيل الأول ، وسر ماأحرزه من نصر فى كل ماخاض من معارك وفتوح .

تربية الخلق والسلوك :

يهدف الإسلام إلى بناء عالم نظيف ، والوصول بالإنسانية إلى آفق خلقى رفيع ، يتفق وكرامة الإنسان ، ويمكنه من الرقى بالحياة وتحقيق رسالة استخلافه فى الأرض ، ومن ثم كان العنصر الأخلاقى أصيلا فى النظام الإسلامى ، يلاحظ فى تربية الفرد وفى تكوين الأسرة وبناء المجتمع ، كما يلاحظ فى إقامة الدولة وعلاقتها بالأفراد والدول فى السلم

والحرب ، فهو الأساس الذى تقوم عليه الأمة التى تحمل أمانة تحقيق هذا الهدف .

والخلق الكريم هو الضمان القوى الوحيد لكل مجتمع من الانحراف ، ولكل دولة من الظلم ، ولكل حضارة من الفساد ، فالعلم وحده لاينفع دون عاصم من خلق ، والدساتير والقوانين لاتصلح دون وازع الضمير .

ومن ثم فقد حدد القرآن أسلوب الإصلاح وقاعدة التغيير :

« إِنَّ اللهَ لايُغَيِّرُ مابِقَومٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِم (١) » .

وذلك هو سبيل تكوين الأمم وإنشاء الحضارات ، فلا يمكن أن يتم إصلاح مجتمع حتى يبدأ الإصلاح من داخل النفس بالفكرة والتربية ، فتغيير النفوس هو الانقلاب الكبير والإصلاح الشامل لكل مجتمع وأمة ، وما من حركة إصلاحية سلكت غير هذه السبيل إلا منيت بالفشل الذريع ، وذلك لأن القوانين والعقوبات وحدها لاتكفى مهما كانت رادعة قاسية ، ومن ثم كان ميدان الإسلام الأول هو عالم النفس والضمير ، وكانت وسيلته الأولى للوصول إلى هدفه هى التربية .

* * *

ولا بد للتربية من القدوة الحسنة ، فان المبادىء وحدها لاتكفى مهما سمت حتى تصبح سلوكاً فى واقع الحياة ، يراه الناس ويتعاملون معه ويتأثرون به ، وتأثير القدوة الحسنة فى النفوس تأثير عميق ؛ لأن

---

(١) آية ١١ من سورة الرعد .

الكلمة لاتستمد قوتها وتأثيرها من حلاوتها وجمالها ، إنما تستمد قوتها من واقعها ومن رصيدها العملى فى سلوك صاحبها وإيمانه بها :

والمطابقة بين العقيدة والسلوك، وبين القول والعمل هى قوة كل داعية ، ورصيد كل قدوة ، فاذا خالف بين قوله وعمله، وسمع الناس منه كلاماً حلواً بليغاً ، وشهدوا سلوكاً فاسداً منحرفاً، أصيبت النفوس بالشك فيه وفى دعوته ، وفقدت كلماته قوتها وتأثيرها ، وأصبحت وعظاً لاصلة له بالقلوب ، وحرفة تؤدى لاأثر لها فى إصلاح أو تربية :

ورسول الله هو القدوة الحسنة الذى اختاره الله لرسالته ، وأعده إعداداً كاملا للقيام بمهمته ، وأدبه فأحسن تأديبه حتى كان خلقه القرآن ، ولقد بلغ الخلق فى شخصه الكريم إلى ذروة الكمال، وما خالف قط بين سلوكه وبين مايدعو إليه ، وقد شهد له بذلك من يدين بالإسلام ومن يدين بغير الإسلام ، وسيرته تدل على مدى تأثير خلقه وسلوكه ومعاملته فى أصحابه وفى أعدائه على السواء ، كما تدل على أنه قدوة الإنسان المهذب فى كل أمة وفى كل زمان ، وحسبه شهادة القرآن :

« وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » .

* * *

وأخلاق الإسلام ليست فضائل متفرقة ، ولا مجموعة من الحكم والمواعظ ، إنما هى وحدة متكاملة وثيقة الصلة بالعقيدة ، وهى التطبيق العملى لها فى واقع الحياة ، وهى دليل تمكن الإيمان من القلب ، فمجرد الإيمان لايكفى ، ولا يعتبر إيماناً حتى يلبثق عملا صالحاً وتطبيقاً عملياً فى السلوك ، أما دون ذلك فادعاء ليس له فى دين الله مكان ولا اعتبار .

فالظلم والخديعة والغدر مثلا ، ليست مجرد جرائم فى حق المجتمع أو الدولة ، إنما هى تنكر للعقيدة وخروج من حظيرة الإيمان .

* * *

ومن نماذج جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى تربية المؤمنين فى هذا العهد ، أنه التزم خطة حددها له القرآن لتكون أساساً لدعوته ومنهجاً لسلوكه وسلوك أصحابه ، ومن أوائل السور نزولا نستطيع أن نكون فكرة محددة عن هذا المنهج الذى جاء به القرآن .

ففى سورة القلم وهى السورة الثانية حسب ترتيب النزول :

« فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهذا الحديث ، سَنَسْتَدْرِجُهم من حيثُ لا يعلمُون . وأُملِي لهم إنَّ كَيدِى مَتِينٌ (١) » .

« واصبِرْ على ما يقولُون واهْجُرهُم هَجْرًا جَمِيلا . وذَرْنِى والمُكَذِّبِين أُولى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُم قَلِيلا (٢) » .

وفى سورة المدثر وهى السورة الرابعة :

« يا أَيها المُدَّثِّرُ قُم فَأَنذِرْ . وربَّك فكبِّرْ . وثيَابَك فطهِّرْ . والرُّجزَ فاهْجُر . ولا تَمنُن تَستَكثِرُ ، ولِرَبِّكَ فاصبِر (٣) » .

والآيات تتضمن : الأمر بترك المكذبين لله ، والصبر على المقاومة والتكذيب ، والهجر الجميل ، والقيام بتبليغ الرسالة ، والأمر بالخلق الكريم .

---

(١) الايتان ٤٤ — ٤٥ من سورة القلم .
(٢) الايتان ١٠ — ١١ من سورة المزمل .
(٣) الآيات ١ — ٧ من سورة المدثر .

وهى تكوّن نهجاً واضحاً وخطة محددة للدعوة ولعلاقة الرسول والمؤمنين – بطبيعة الحال – بالمشركين الذين بدأوا بتكذيب الرسول ومقاومة دعوته :

وإذا لاحظنا ظروف المجتمع المكى ، وأن الزعماء الذين قادوا حملة التكذيب والمقاومة هم أصحاب الجاه والسلطان والكلمة المطاعة فى هذا المجتمع ، وأن قريشاً حرصت أن تقوم كل قبيلة بتعذيب من يدخل من أفرادها فى الإسلام ، فكان الذى يقوم بتعذيب المؤمن أهله وذووه ، أو سيده إن كان من الأرقاء ، الأمر الذى يجعل مهمة الجماعة المؤمنة فى دفع العدوان مهمة عسيرة حرجة ، وإذا لاحظنا كذلك عدم جدوى المعارك الجانبية والاشتباكات الفردية فى تغيير الأوضاع وإصلاح المجتمع ، والتى لاتؤدى إلا إلى إيجاد عداوات وأحقاد وثارات فى نفوس الأفراد ، مما يحول دون دعوتهم أو دخولهم مستقبلا فى الإسلام كما أنها لاتزيد الزعماء وأصحاب الجاه والسلطان إلا طغياناً وعداوة للدعوة وقسوة بالمستضعفين ، إذا لاحظنا هذا كله ، أدركنا أن الخطة التى أمر بها القرآن هى الخطة المثلى لمثل هذه الظروف ، فضلا عن أن الجماعة المؤمنة كانت مظلومة معتدى عليها مطاردة فى بلدها دون ذنب أو جريرة إلا لفكرة اقتنعت بها ودين آمنت به ، ولا شك أن هذا الموقف كان سبباً فى كسب الدعوة لكثيرمن المدافعين عنها والمؤمنين بها .

* * *

التزم الرسول هذه الخطة فى دعوته وفى تربية أصحابه ، واستمر القرآن فى الأمر بها وتأكيدها حتى نهاية العهد ، فأمر المؤمنين بالعفو عن المشركين :

« قُلْ للذين آمنوا يَغْفِروا للذين لا يَرجُون أَيَّامَ اللهِ لِيَجزِىَ قَومًا بما كانوا يكْسِبُون (١) » .

ونهاهم عن سب الأصنام :

« ولا تَسُبُّوا الذين يدْعُون مِنْ دونِ الله فيَسُبُّوا الله عَدْوًا بغَيرِ عِلْم ، كذلك زيَّنا لِكل أُمةٍ عَمَلهم (٢) » .

ويبدو أن المشركين قد قاموا ضد الدعوة بعمل مثير ، ضاق به رسول الله ، فنزل القرآن يؤكد الأمر بالصبر وعدم الخروج عن منهج الدعوة فى هذا العهد تحت ضغط عدوان المشركين واستفزازهم :

« فاصبِرْ إنَّ وعْدَ اللهِ حق ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لا يُوقِنُونَ (٣) »

وتعتبر هذه الخطة منهجاً تربوياً عميق الأثر فى تغيير النفسية الجاهلية ، وفى تربية المؤمنين تربية إسلامية جديدة ، فالمعروف عن العرب الذين جاءهم الإسلام ، أنهم كانوا لا يخضعون لحكومة ولا لقانون ، ولا يعرفون طاعة لقيادة أو نظام ، وأنهم كانوا يشنون الحروب ويخوضون المعارك لأتفه الأسباب ، وكان أحدهم يشهر سيفه ويرتكب الحماقات لكلمة أو مظنة إهانة ، وكانوا يتناصرون

---

(١) آية ١٤ من سورة الجاثية .
(٢) آية ١٠٨ من سورة الانعام .
(٣) آية ٦٠ من سورة الروم .

فى الحق وفى الباطل لمجرد العصبية ، فمن أمثالهم التى غير الإسلام مدلولها فيما بعد : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، وهو خلق لا يصلح لدعوة لا تعرف إلا الحق ، ومثل هؤلاء الرجال لا يصلحون جنوداً لفكرة ونظام وقيادة ، ومن ثم كانت هذه الخطة بعيدة الأثر فى صياغة نفوس المؤمنين صياغة جديدة لا تمت إلى الجاهلية بسبب ، فضلا عن أن الصبر على البلاء وتحمل المحنة والعفو عن الإساءة — مع القدرة على الانتصار — كانت مدرسة قامت بنصيبها الكبير فى إعدادالمؤمنين ؛

ولا شك أن التزام هذه الخطة كان عسيرا على بعض النفوس ، فقد روى«أن عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقالوا له : يا نبي الله، كنافى عزةونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة. فقال لهم : إنى أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم [1] » .

كما كان تحمل البلاء والصبر على التعذيب عسيراً على نفوس أخرى ، فقد روى عن خباب بن الأرت ، وكان ممن يعذبون بالكى بالنار ، أنه قال :

« أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُرْدَه فى ظل الكعبة ، ولقد لقينا معاشر المسلمين من المشركين شدة شديدة ، فقلت : يا رسول الله ، ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد مُحْمَرًّا وجهَهُ فقال : لقد كان من قَبْلكم ليُمَشَّط أحدهُم بأَمشاط الحديد ما دُون عَظْمه من لحْم وَعصَب ما يصرِفه ذلك عن دينه ، ويُوضع المنشارُ على فَرْق رأْسِ أَحدِهم فيُشق ما يصرِفه

(١) من حديث رواه النسائي والحاكم .

ذلك عن دينه ، وليُظْهرنَّ الله تعالى هذا الأَمر ، حتى يَصِيرَ الراكبُ من صَنْعَاءِ إلى حَضْرموت ، لا يخاف إلا الله (١) » .

واستمر الرسول فى تربية المؤمنين على هذا المنهج ، فأمر أصحابه بالصلاة فى شعاب مكة بعيداً عن الأنظار ، واتخذ من دار الأرقم عند الصفا مكاناً منعزلا يجتمع فيه بالمؤمنين ، ومر العهد كله دون اشتباك بين الفريقين ، رغم أن حوادث التعذيب كانت تدعو إلى الاستفزاز والإثارة ، ورغم أن الجماعة المؤمنة كانت تضم عدداً من ذوى المنعة والقوة ، كانوا قبل إسلامهم غاية فى الاندفاع والتهور ، وهى نتيجة تدل على مدى النقلة التى نقلتهم إليها هذه التربية ، وما أحدثت فى نفوسهم من تغيير حتى وصلوا إلى هذه الغاية من الصبر والاحتمال والطاعة وضبط النفس .

الأسس الاخلاقية :

تضمن القرآن المكى الأسس العامة والأصول الكلية اللازمة لبناء الأمة ، وجاء بالأخلاق التى تعتبر أساساً لتربية الفرد والجماعة ، ودستورا للمجتمع والدولة ، وهى من الكثرة بحيث تحتاج إلى كتاب مستقل ، ونكتفى هنا ببعض الأمثلة التى يمكن أن تعطى فكرة عن الأسس الأخلاقية فى هذا العهد .

أقام القرآن الأسرة على أساسها الفطرى السليم ، فصحح النظرة إلى الزوجية ، فالزوجة ليست متاعاً ولا حطاماً كما كان وضعها قبل الإسلام ، إنما هى سكن للرجل ليس بينهما إلا المودة والرحمة :

---

(١) رواه البخارى .

« ومن آياتِه أنْ خلَقَ لكم من أنفسِكم أزواجا لتسكنُوا إليها ، وجَعَلَ بَيْنَكم مَوَدَّةً ورحْمة ، إنَّ فى ذلك لآيات لقوم ٍ يَتفكَّرون (١) »

وارتفع بخلق المؤمن وضميره وتقواه عن مستوى وأد البنات والضيق بالأنثى :

« وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأُنثى ظَلَّ وجهه مُسْوَدًّا وهو كَظِيم . يَتَوارى من القوم ِ من سُوءِ ما بُشِّر به ، أيُمسِكه على هونٍ أمْ يَدسُّه فى الترابِ ، ألا سَاءَ ما يَحْكمون (٢) » .

ووصى الإنسان بوالديه ، وقرن شكرهما بشكر الله ، وخص الأم بالذكر ، وأمر بصحبتهما بالمعروف حتى لوكانا مشركين يأمرانه بالكفر :

« ووَصَّينا الإنسان بوالديه ، حَمَلَتْه أُمُّه وهْنًا على وهْن ، وفِصَاله فى عامين أن اشكُرْ لى ولوالديك إلىَّ المصير . وإن جاهداك على أن تشركَ بى ما ليس لك به علم فلا تطعْهما وصاحِبْهما فى الدنيا معروفا (٣) »

وأمر بالإحسان فى معاملتهما ، وقرن هذا الأمر بعبادة الله ، وأسلوبه فى التعريف بهذا الإحسان يتسامى بالمؤمن إلى ذروة الوفاء والسماحة وحسن الخلق ، إن الوالدين حين تتقدم بهما السن ، يكونان فى شدة الحاجة إلى الرعاية والمعاملة الكريمة ، ويربى القرآن الأبناء على

(١) آية ٢١ من سورة الروم .

(٢) الآيتان ٥٨ — ٥٩ من سورة النحل .

(٣) الآيتان ١٤ — ١٥ من سورة لقمان .

الإحسان إلى جيل الآباء الذى قام بواجبه فى تنمية الحياة ، فلا أقل من تقديره والوفاء له ورعايته والإحسان فى معاملته فى كبرته وضعفه :

« وقَضَى ربُّك ألا تعبُدوا إلا إيَّاه وبالوالدَيْن إحسَانا ، إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندكَ الكِبرَ أحدهُما أو كلاهما فلا تَقُلْ لهما أفٍّ ولا تَنْهَرهمَا وقل لهما قولًا كريمًا . واخفِضْ لهما جنَاحَ الذُّل من الرحمةِ وقل : رب ارْحَمهما كما ربَّيَانى صَغِيرا (١) » .

إن الأسرة هى الخلية الأولى فى بناء المجتمع ، ومتى قامت على أساس سليم وصلح أفرادها وحسنت العلاقة بينهم صلح المجتمع كله .

* * *

كما جاء القرآن بالأسس الأخلاقية للمجتمع والدولة ، وربى الرسول أصحابه عليها قبل إقامة الدولة بوقت طويل :

« والذين استجابُوا لرَبِّهم وأقاموا الصلاة وأمرُهم شورَى بينهم ومما رَزَقْنَاهم يُنفِقون . والذين إذا أصابَهم البَغْىُ هم يَنْتَصِرون . وجزاءُ سيِّئَةَ سيئةٌ مثلها ، فمَنْ عفا وأصلحَ فأَجرُه على الله ، إنَّه لا يحُب الظالمين . ولمَنِ انتَصَرَ بعد ظلمه فأُولئك ما عليهم مِنْ سبِيل . إنما السَّبيل على الذين يظلمون الناس ويَبْغون فى الأَرض بغير الحق ، أولئك لهم عَذابٌ أليم . ولَمَنْ صَبَر وغَفَر إن ذلك لَمِنْ عزمِ الأُمور (٢) » .

(١) الآيتان ٢٣ ــ ٢٤ من سورة الاسراء .
(٢) الآيات ٣٨ ، ٤٣ من سورة الشورى .

وهذه الآيات مكية نزلت قبل إقامة الدولة بوقت طويل ، وهى تحمل بعض صفات الأمة المؤمنة وطابعها ، وتعتبر جزءاً هاماً من الدستور الإسلامى ، وهذا يعنى أن القرآن كان يربى الجماعة المؤمنة منذ كانت مستضعفة فى مكة ،ويعدها إعداداً مقصوداً للدولة والحكم ، كما يعنى أن هذه الصفات لابد من تحققها فى واقع الجماعة المؤمنة قبل مرحلة الدولة والقيام بأمانة الدعوة فى المجال الدولى ، كما يدل على أن الشورى أصل إيمانى من أصول تكوين هذه الجماعة قبل أن يكون أسلوباً للحكم ، وأن دفع العدوان والانتصار من الظلم ، هما كذلك من أصول تكوين هذه الجماعة وحق من حقوقها ، وأن الأمر بكف الأيدى والصبر وعدم الانتصار من المشركين فى العهد المكى ، كان خطة لحركة الدعوة ، ومنهجاً تربوياً لضبط النفس وتكوين الأفراد .

* * *

وآيات سورة النحل ، تأمر بدورها بأخلاق معينة تفرضها على المؤمنين وتربيهم عليها ، وتجعلها أصلا إيمانياً من أصول تكوين الجماعة ؛ لتكون فيما بعد ، أصلا فى بناء الأمة ، وجزءاً من دستورها ، وأساساً لقانونها الدولى :

« إن الله يأمر بالعدلِ والإحْسان وإيتّاء ذِى القُربى وينهى عن الفحشاء والمُنْكَر والبَغْيِ يَعِظُكم لعلَّكم تذَكَّرون . وأوْفوا بعهدِ الله إذا عاهَدْتُم ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدِها وقد جَعَلْتُم الله عليكم كفِيلا ، إن الله يعلم ما تفعلونَ . ولا تكُونوا كالَّتى نَقَضَتْ غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً تتَّخذُونَ أَيْمانَكم دَخَلًا بينكم أنْ

تكونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىَ من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لكُم يَومَ القيامةِ ما كنتُمْ فيهِ تَخْتلفون (١) »

وبالرغم من أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل إقامة الدولة ومرحلة الحكم ، فإنها ترسم صورة واضحة لأخلاق المجتمع المسلم ، وتجعل إقرار العدل والإحسان وتطهير المجتمع من الفاحشة والظلم من أصول تكوين الجماعة وتربية المؤمنين ، كما تجعلها طابعاً مفروضاً على الأمة ، كما أنها تتضمن مبادىء أخرى غاية فى الخطورة ، تعتبر أساس القانون الدولى الذى نظمه القرآن فيما بعد فى العهد المدنى :

فالآيات تعتبر الوفاء بالعهود والمواثيق غاية فى ذاته ، لا يصح أن تنقض لأى سبب ، أما اعتبار المدنية الحديثة المعاهدات قصاصات من الورق ، واعتبار مصلحة الدولة مقدسة يستباح فى سبيلها الغدر والغش والكذب ، فجاهلية حديثة شر من الجاهلية الأولى ، ونكسة إنسانية ، وضياع للخلق ، وتحطيم للقيم ، يبرأ منها الإسلام ، ويأخذ المؤمنين بالوفاء ويجعله فى نظامه فرضاً لابد من القيام به ، حتى ولو تعارض مع المصلحة الموهومة للدولة ، ويعتبر مصلحتها فى الوفاء حتى لو ظن أن فيه خسارة عاجلة ، أو تفويت كسب موهوم .

ومن هنا تبين أصالة العنصر الأخلاقى فى مبادىء الإسلام ، كما تبين ضرورة التربية العميقة ، وحكمة تمسك الإسلام بالقيام بها وإصراره على تحقيقها أولا فى سلوك المؤمنين قبل مرحلة الحكم والتعامل فى المجال الدولى ، وذلك لأن قيام الدولة مرتبط بتحقيق أهداف الحياة الرفيعة ،

---

(١) الآيات ٩٠ — ٩٢ من سورة النحل .

والعمل لخير الإنسانية ، وتوفير العدل لجميع الناس ، والسعى لإتمام مكارم الأخلاق .

التربية على الفكرة العالمية :

فى سبيل تحقيق هذه الفكرة ، ربى القرآن المؤمنين على وحدة الدين ووحدة الرسل ، ووحدة المؤمنين فى كل زمان ومكان ، وأن الدين لايصح أن يكون سبباً يؤدى إلى الفرقة والعداوة ، بل يجب أن يكون سبيلا إلى الأخوة والإحساس بالوحدة التى تجمع بين الأمة المسلمة وكل أمم أهل الكتاب :

« شَرَعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به نوحًا والذى أَوْحَينا إليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُوا الدين ولا تَتَفَرَّقوا فيه ، كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يَجتَبِى إليه من يشاءُ ويَهْدِى إليه من يُنِيب (١) » .

وجاءت سورة الأنبياء بقصص عدد من الرسل ، كأنما هى قصة أسرة واحدة لايفصل بينها زمان ولا مكان ، ثم تعقب السورة بوحدة هذه الأمة :

« إنَّ هذه أُمَّتكُم أُمةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدونِ (٢) » .

وكانت التربية على هذه الوحدة من العمق والاستجابة ، بحيث أن الجماعة المؤمنة كانت تحس بالأخوة والحب لجميع أهل الكتاب ، على بعد

(١) آية ١٣ من سورة الشورى .

(٢) آية ٩٢ من سورة الأنبياء .

المسافات واختلافات الأجناس والأوطان . فلما قامت الحرب بين فارس والروم ، وانتصرت فارس الوثنية ، عير المشركون الجماعة المؤمنة بهزيمة إخوانهم الروم الكتابيين ، واغتم المؤمنون لهذه الهزيمة واهتموا بأمرها اهتماما كبيراً ، حتى نزل القرآن يطمئنهم بقرب انتصار الروم :

« غُلِبَتِ الرومُ . فى أَدْنَى الأَرضِ وهم من بَعدِ غَلَبِهم سيغلِبون فى بِضع سِنين ، لله الأَمرُ مِن قبل ومِن بَعْد ويَومَئِذٍ يفرَحُ المؤمنون بنصر الله ، ينصرُ من يشاءُ ، وهو العزيزُ الرَّحيمُ (١) » .

واستطاعت هذه التربية أن تقضى على العصبية الجاهلية فى أنفس المؤمنين ، وأن تجعل من العقيدة وطناً ، ومن المؤمنين بالله — على إختلاف مذاهبهم — أهلا وإخواناً ، ومن جميع الأمم التى تدين بالتوحيد حزباً واحداً لمواجهة قوى الإلحاد والوثنية :

وتعتبر التربية على هذه الدعوة ، أساساً كبيراً لإقامة الإنسانية الواحدة ، ولو أن أهل الكتاب إستجابوا لهذه الدعوة لتكون من الجميع حزب مؤمن عالمى ، ولاستطاع هذا الحزب المؤمن المتضامن أن يوجه تاريخ العالم إلى غير وجهته التى سار فيها ، وأن يقضى على قوى الشر والإلحاد فى العالم :

* * *

---

(١) الآيات ٢ — ٥ من سورة الروم .

وإذا لاحظنا أن هذه التربية على هذه المبادئ ، بدأت والمؤمنون ما زالوا قلة مستضعفة فى مكة ، والدعوة ما زالت محاصرة مضيقا عليها ، أدركنا ضرورة جهاد التربية ، وكيف يربى الإسلام للمدى البعيد ، فيعد المؤمنين إعداداً طويلا هادئاً عميقاً ، لا يتعجل النتائج ولا يمل طول الطريق ، حتى إذا وصلوا تلقائياً إلى مرحلة الدولة والتعامل فى المجال الدولى ، كانوا أهلا لدعوة البشرية وقيادتها فى طريقها إلى الله ، وكانوا هم بخلقهم وتعاملهم وسلوكهم تطبيقاً عملياً لمبادئ الإسلام فى واقع الحياة ، وكان هذا التطبيق دعوة فعالة أجدى من دعوة القلم واللسان .



الفصل الثانى

الجهاد فى العهد المدنى

ا – الجهاد فى تنظيم المجتمع .

ب – الجهاد فى سبيل الله .

ا – الجهاد فى تنظيم المجتمع

بدأ العهد المدنى فى الواقع قبل الهجرة بعامين ، منذ إسلام لفر من أهل يثرب وقدوم مصعب بن عمير مبعوثاً من الرسول ليدعو أهلها إلى الإسلام ويقوم بوظيفة الإمام والمعلم والمربى لمن فيها من المسلمين .

وكان يقيم بيثرب قبل الإسلام مشركون ويهود ، أما المشركون من الأوس والخزرج فكان الخلاف بينهم مستحكما ، واستمرت الحرب بينهم مدة كبيرة حتى أنهكتهم ، ورغم ما كان بينهم وبين اليهود من صلات ، فلم يتأثروا بدينهم وعقائدهم ، وظلوا على وثنيتهم حتى جاءهم الإسلام .

أما اليهود ، فتاريخهم بيثرب قديم ، فقد اتخذوها دار هجرة منذ أمد بعيد ، واندمجوا فى الحياة العربية ، وارتبطوا بالعرب بمواثيق

الحلف والجوار ، ووصلوا فيها إلى مكانة كبيرة ، لكثرة عددهم ، وسعة ثروتهم ، ومهارتهم فى التجارة والصناعة والزراعة ، فضلا عن أنهم أهل علم وكتاب سماوى ، يقوم أحبارهم بالفصل فيما بين أهل يثرب من خلاف وخصومات ، ولا شك أن الخلاف الذى كان موجوداً بين الأوس والخزرج قد أدى إلى ضعف الفريقين ، وزاد فى مكانة اليهود بيثرب رسوخا وقوة .

ولم يكن بيثرب كيان مسيحى ، لأن نصارى الجزيرة كانوا يقيمون جنوباً باليمن ، وشمالا بمشارف الشام ، وكانت صلتهم قوية بدولة الروم ، يدينون لها بالولاء والطاعة .

ولما هاجر النبى إلى يثرب سماها المدينة ، وأطلق القرآن على مسلميها اسم الأنصار ، وعلى الذين قدموا إليها من مكة إسم المهاجرين ، ولما بلغها النبى ، خرج أهلها جميعاً لاستقباله ، يريد كل فريق منهم أن يستأثر به ويضمه إلى حزبه .

* * *

ولأول مرة تجمع المسلمون فى مكان واحد يقيمون فيه شعائر دينهم الجماعية ، ويتمتعون بالحرية والأمن ، ويصبح لهم كيان مستقل وقوة كبيرة ويصبح رسولهم زعيما للمدينة وحاكما لها .

وقد بدأ الرسول فى تنظيم المجتمع بمجرد وصوله إلى المدينة ، وكانت مشكلة إيواء المهاجرين هى أولى المشاكل التى واجهته ، فقد تركوا فى مكة كل ما يملكون ، وخرجوا منها بعقيدتهم ولم يحملوا معهم مالا ولا

متاعاً ، فكان لا بد من تنظيم معيشتهم فى المدينة على أسس مستقرة ثابتة ، وقد عالج الرسول هذه المشكلة بحكمة بالغة وسرعة عجيبة ، وبأسلوب ليس له فى تاريخ الدعوات وبناء الأمم مثيل ، فقد آخى بين المسلمين أخوين أخوين فى الله ، وجعل لهذه الأخوة كل حقوق أخوة الدم ، وقام كل واحد من الأنصار بكفالة أسرة من المهاجرين ، شاطرها ماله وبيته وأرضه ، وكان موقفهم غاية فى السماحة وكرم النفس والإيثار ، وكان تنافسهم فى استقبال المهاجرين وكفالتهم بالغاً ، حتى قيل إنه لم ينزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة ، وقد أثنى عليهم القرآن ثناء كريماً ، وسجل لهم إيثارهم إخوانهم على أنفسهم :

« والذين تبوءُوا الدارَ والإيمانَ مِن قَبْلِهم يُحِبُّون من هَاجرَ إليهم ولا يَجدون فى صُدورهم حاجَةً مما أُوتوا . ويُؤْثِرون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصَاصةٌ ، ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأُولئك هم المُفلحون (١) » .

وقد نزلت هذه الآية بعد معركة بنى النضير ، وما أفاء الله فيها على المسلمين من غنائم وأموال ، فقال الرسول للأنصار : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شئ من الغنيمة » .

فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا لإخواننا ، ونُؤْثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

---

(١) آية ٩ من سورة الحشر .

وهذا البذل الرضى ، والإيثار الكريم ، يدل على مدى ما وصلت تربية الرسول بالمؤمنين ، كما يدل على مدى صدق الأنصار فى نصر الدعوة وكفالة المهاجرين :

وقابل المهاجرون سماحة إخوانهم الأنصار بكثير من التعفف والإباء ولم يقبلوا أن يعيشوا كلا عليهم، وأقبلوا على العمل فى الزراعة والتجارة وقد لاقوا كثيراً من المشقة والحاجة فى حياتهم الجديدة ، وآثروا شظف العيش وكد العمل على أن يعيشوا عالة على الأنصار .

* * *

وكان الإسلام قد ألف بين الأنصار قبل الهجرة ، فلما قدم النبى إليهم ، وجه عنايته إلى القضاء على ما بقى فى نفوسهم من آثار الخصومة القديمة ، وتربيتهم على الأخوة والحب ، وقد نجح فى التأليف بين قلوبهم بتعاليم القرآن نجاحاً كبيراً ، وأسلوب القرآن فى التذكير بهذه النعمة ، يدل على مدى ما كانت قد وصلت إليه الفرقة والخصومة بين الفريقين، وأن الأخوة التى قامت بينهم كانت إحدى معجزات الإسلام:

« هُوَ الذى أَيَّدَكَ بنَصرِه وبالمؤْمنين . وأَلَّفَ بين قُلوبهم ، لو أَنفقتَ ما فى الأَرضِ جميعا مَا أَلَّفْتَ بين قُلوبِهِمْ ولكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بينهم ، إنه عزيز حكيم (١) » .

ولقد كانت هذه الخصومة ثغرة كبيرة فى بناء المجتمع ، لو أنها استمرت لهددته بأخطر النتائج ، ولكانت أخطر عليه من أعدائه

(١) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأنفال .

المتربصين به ، وقد فطن اليهود حين حاربوا الإسلام إلى خطورة هذه الثغرة ، فسعوا بالدس والوقيعة بين الأنصار ، فدسوا بينهم من ذكرهم بالعداوة والثارات القديمة ، وأنشدهم بعض ما قالوه من شعر ، حتى تنازع الفريقان ، وحتى توعد بعضهم بعضاً وتواثبوا إلى السلاح ، فجاءهم النبي سريعا وقد كادوا يقتتلون ، فقال لهم :

« يا معشر المسلمين ، الله الله . أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم ؟ . » .

فبكى الأنصار ، وعلموا أن الشيطان أوقع بينهم ، وتعانقوا ، وانصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين .

ونزل القرآن يحذرهم عواقب الخلاف والعودة إلى العداوة القديمة ، التي تعتبر كفراً بعد الإيمان :

« يـأيُّها الذين آمنوا إن تَطِيعوا فَريقًا من الذين أُوتُوا الكتابَ يَردُّوكُم بعدَ إيمانِكم كافرين . وكيف تَكفُرونَ وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ اللهِ وفيكم رسولُه ، ومن يَعْتصِمْ بالله فقد هدِيَ إلى صِرَاطٍ مستقيم (١) » .

وكان لا بد للمسلمين من مكان يجتمعون فيه بالنبي ويقيمون فيه صلوات الجماعة ، فاختار الرسول مكاناً لإقامة المسجد ، وأمر أصحابه

---

(١) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة آل عمران .

بالتعاون فى بنائه ، فأقبلوا على العمل بهمة ونشاط ، وشاركهم الرسول عملهم ، فكان ينقل معهم الحجارة ويحمل التراب ، فتم بناؤه فى أيام قليلة ، ولم يكن كمساجد اليوم ، أبهة وزخرفة ، إنما كان غاية فى اليسر والتواضع ، فكانت أرضه مفروشه بالحصى ، ومنبره جذع شجرة ، وسقفوا بعضه بسعف النخيل وتركوا أغلبه مكشوفاً .

واتخذ الرسول من هذا المسجد مركزاً للدعوة والدولة ، يصلى فيه بالمسلمين ويخطبهم ، ويعقد فيه مجالس المشاورة ، ويصدر منه الأوامر ، ويلقى فيه الوفود ، كما جعل منه مقراً لعدد من المسلمين عرفوا بأهل الصفّة .

كما بنى عدداً من المساكن المتواضعة حول المسجد ، خصص بعضها لزوجاته ، وهى التى كانت تعرف بالحجرات ، وبعضها الآخر لإقامة بعض أصحابه ، كما أقام سوقاً نظم فيها تجارة المدينة ، وعهد إلى عمر ابن الخطاب بالإشراف عليها :

* * *

طابع الإسلام منذ العهد المكى – قبل قيام الدولة – طابع جماعى ، ورغم أن ظروف المجتمع المكى كانت تحتم ألا يكون للمسلمين مظاهر جماعية ، إلا أن طابع الجماعة كان واضحاً من علاقة المؤمنين بعضهم ببعض ، ومن علاقتهم برسول الله ، وبعد أن كان القرآن فى مكة يربى أفراداً ويكون جماعة ، بدأ فى المدينة يبنى أمة تقوم على أمانة مبادئه فى الأرض ومنهجه فى الحياة ، وتتابعت آياته بالشرائع والنظم ، فنظم

آداب البيت والأسرة ، وآداب المجتمع والدولة ، وحدد معالم واضحة لعالم رفيع ، وجاء بالقواعد والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم والتى تؤدى إلى قيامه وتكفل صيانته .

واكتملت شعائر الإسلام الجماعية بالمدينة ، التى جعلت من المسلمين أمة متميزة متكافلة : صلاة الجمعة ، والزكاة والصيام والأذان للصلاة خمس مرات فى اليوم ، واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بصلاة الجماعة بالمسجد حتى كانت تضم جميع المسلمين : رجالا ونساء لا يكاد يتخلف عنها أحد .

وإتماماً لبناء الأمة المسلمة ، أمر القرآن المسلمين بتربية أسرهم وفق مبادئ الإسلام ، وفرض على كل فرد منهم هداية أهله وإصلاح بيته وتكوين بيت مسلم ، ومنذ العهد المكى والمؤمن مكلف بأمر أهله بالصلاة والمصابرة على هذا الأمر :

« وأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاةِ واصْطَبِرْ عليها ، لا نسأَلُكَ رزقًا ، نحن نرزقكَ ، والعاقِبة للتَّقْوىَ (١) »

ثم جاء الأمر فى العهد المدنى شاملا :

« يـأَيُّها الذين آمنوا قوا أَنفسَكم وأَهلِيكم نارًا وَقودها النَّاسُ والحِجَارةُ ، عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ، لا يَعْصُون الله ما أَمرهم ويفْعلون ما يؤمرون (٢) » .

---

(١) آية ١٣٢ من سورة طه .

(٢) آية ٦ من سورة التحريم .

وخص زوجات النبى بالأمر ، ليكن أسوة لبيوت المسلمين :

« وأَقِمْنَ الصلاة وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورسولَه ، إنما يُريد الله لِيُذهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ ويُطَهِّركم تطهيرا . واذكُرْن ما يتْلى فى بيوتِكُنَّ من آياتِ الله والحِكمة ، إن الله كان لطيفًا خبيرًا (١) » .

وأصبح البيت بهذا التوجيه ، هو الميدان الأول لجهاد المؤمن ، حتى يجعل منه نواة مسلمة للمجتمع المسلم ، وحتى يكون أساساً سليما للأمة المسلمة ، وقلعة منيعة من قلاع الإسلام ، فلا تبنى الأمم إلا ببناء البيوت ، ولا يمكن تربية الأجيال الناشئة إلا بعد تربية الزوجات ، ولا يستقيم جهاد الحرب حتى يقف كل فرد من أفراد الأمة على ثغرة من ثغراتها ، ويجعل من نفسه جندياً من جنود المعركة ، وبهذا يكون ظهر المجاهدين قوياً مستوراً ، لا يشغلون بما خلفوا وراءهم من أهل وولد ، لأن الجميع قد ربوا على الإيمان بالبذل والفداء فلا تفسد الأسر بغيبة المجاهدين ، ولا تهلك بخسارة الأنفس والأموال .

تنظيم العلاقة بغير المسلمين :

وحدة الدين ، ووحدة الرسل والرسالات ، ووحدة المؤمنين فى كل العصور ، أصل إيمانى من أصول الإسلام ، وعنصر من عناصر

---

(١) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأحزاب .

التربية التى تلقاها المؤمنون فى العهد المكى، ثم أكده القرآن فى صدر سورة البقرة ، وهى أول ما نزل منه فى العهد المدنى :

« والذين يُؤْمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلِك وبالآخرة هم يوقنون (١) » .

كما أكده مرة ثانية فى ختامها :

« آمَنَ الرسولُ بما أُنزل إليه من ربِّه والمؤْمنون ، كل آمَنَ بالله وملائكتِه وكتبه ورسلِه ، لا نُفَرِّقُ بين أَحدٍ من رُسُلِه ،وقالوا : سمِعْنا وأَطَعْنَا ، غُفرَانَك ربَّنا وإليكَ المصير (٢) »

كان هذا الأصل فى العهد المكى عاطفة وإحساساً عند المؤمنين ، وفى مجتمع المدينة بدأ مجال تطبيقه العملى فى واقع الحياة ، فما كاد الرسول يفرغ من تنظيم معيشة أصحابه والاطمئنان إلى أخوة الإسلام التى ألفت بين قلوب الأنصار ، حتى بدأ فى تنظيم علاقته بيهود المدينة وما جاورها وبمن بقى من أهلها على وثنيته : فدعاهم جميعاً إلى ميثاق ينظم علاقاتهم بالمسلمين ، وعقد بينهم معاهدة نظمت كل نواحى المجتمع فى حالة السلم والحرب ، وهذه بعض نصوصها :

• المؤمنون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس .

---

(١) آية ٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٢٨٥ من سورة البقرة .

• سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مومن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ؛

• لا يحل لمؤمن أن ينصر مُحدثا أو يؤويه ؛

• لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ؛

• يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

• لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم .

• ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛

• على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ؛

• ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فان مرده إلى الله ، وإلى محمد رسول الله .

• لا تحول هذه الصحيفة دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد بالمدينة آمن ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن اتقى ، ومحمد رسول الله .

* * *

وقد أصبحت المدينة بهذه المعاهدة حرماً آمناً لأهلها جميعاً ، فكفلت حرية الاعتقاد والعبادة للمسلمين ولغير المسلمين ، وضمنت نصرة المظلوم وحماية الجار ورعاية الحقوق ، كما حرمت التعاون مع مشركي مكة ، ونظمت تعاون المسلمين واليهود على الدفاع عن المدينة إذا هاجمها عدو ، كما رضي فيها الجميع بالتحاكم إلى الله ورسوله ، وبهذا أرسى الرسول قواعد المجتمع ، واطمأن على أمن المدينة من داخلها وما جاورها ، واعترف به الجميع رئيساً للدولة والتحاكم إلى مبادئ الإسلام .

ب ـ الجهاد فى سبيل الله

يفرض الإسلام الجهاد الدائم على الأمة كلها : جهاد النفس والهوى والجهاد فى البيت لتربية الأسرة وتنشئة الأبناء تنشئة إسلامية ، ومقاومة الظلم والمنكر والعمل للخير فى المجتمع ، والتمكين لمبادئه بالدعوة إليها وحمايتها وإعلاء كلمة الله فى الأرض . وذلك هو مفهوم الجهاد فى الإسلام :

ولأن « الجهاد فى سبيل الله » قد وردت بكثرة فى القرآن فى موطن جهاد الحرب بالنفس والمال ، أصبح مدلولها فى الأذهان مقصوراً على القتال ، غير أنها فى القرآن أشمل من القتال :

« ثُمَّ إن ربَّكَ للذين هاجَروا من بَعْدِ ما فتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربَّك من بعدِها لغفورٌ رحيمٌ (١) » .

« والذين جاهدوا فينا لَنَهدينَّهُم سُبُلنا ، وإن الله لَمَعَ المحسنين (٢) » .

« فلا تَطِعِ الكافرين وجاهِدْهم به جهادًا كبيرا (٣) » .

وهى آيات مكية نزلت قبل الإذن بالقتال :

---

(١) آية ١١٠ من سورة النحل .

(٢) آية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(٣) آية ٥٢ من سورة الفرقان .

وسبيل الله . كما فسرها النبي (ص) هي كلمته ، أي دعوته ومبادئه ومنهجه .

« روى البخارى أن رجلا جاء إلى النبي فقال : يا نبي الله، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه . فمن فى سبيل الله ؟ .

قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

الاذن بالقتال :

لما أصبح للمسلمين دولة بالمدينة ، ورضى أهلها جميعاً بالنبي صلى الله عليه وسلم رئيساً لها مسئولا عن أمنها وسلامتها ، كان لابد من حماية هذا الوضع من العدوان .

وما كانت قريش لتدع هذا المجتمع آمنا ، وقد أعلنت الحرب على الإسلام منذ ثلاثة عشر عاماً ، فقاومت رسوله وآذته وهمت بقتله ، وأصابت المؤمنين فى أنفسهم وأموالهم ، فلما هاجر بعضهم إلى الحبشة عز عليها أن يفلتوا من قبضتها ، فبعثت وفدا يحمل الهدايا إلى النجاشي ورجالة لإعادتهم ، واعتبرت الهجرة إلى المدينة خطراً كبيراً على تجارتها إلى الشام وسلطانها بالجزيرة ، ففزعت حين علمت ببيعة العقبة الكبرى فى موسم الحج ، وحاولت أن تبطش بالذين بايعوا رسول الله من أهل يثرب ، ثم وقفت فى سبيل الهجرة مصرة على أن تحول دونها بأى ثمن ، فأجمعت على قتل النبي ليلة هجرته ، وحبست عدداً من المؤمنين وقيدتهم بالأغلال وسامتهم سوء العذاب واستولت على أموال الذين

تمكنوا من الخروج من مكة وممتلكاتهم ، فلم يكن من المتوقع أن ترضى بوضع المسلمين بالمدينة أو تسكت عليه ، بل كان المؤكد أنها سوف تلجأ إلى العدوان المسلح على المدينة ، وبهذا كانت ظروف المسلمين تحتم عليهم الدفاع عن أنفسهم والإذن لهم بالقتال ، وقدأذن الله لهم به بعد الهجرة :

« أُذِن للذين يُقَاتَلون بِأَنَّهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصرِهم لَقَدِير. الذين أُخرجو من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنَا الله ، ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَهُدِّمت صوامعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكرُ فيها اسمُ الله كثيرًا ، ولينصرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرهُ ، إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيز (١) » .

ثم حض القرآن على القتال لمقاومة الظلم وتحرير المستضعفين الذين كانوا يعذبون فى مكة إكراها على الكفر وترك الإسلام ، والذين كانوا يجأرون إلى الله بالشكوى والدعاء :

« ومَالكم لا تُقَاتِلون فى سبيلِ اللهِ والمُستَضْعفينَ مِنَ الرجالِ والنساءِ والوِلدان الذين يقولون : رَبنا أَخْرِجْنا من هذهِ القريةِ الظالمِ أهلُها واجعلْ لنا من لَدُنْك وَليًّا واجعلْ لنا من لَدُنْكَ نَصيرًا (٢) » .

والآيات تحدد أسباب الحرب فى دفع الظلم ونصرة المظلوم ، ومنع الفتنة فى الدين، والإخراج من الوطن بغير حق ، وكفالة حرية

(١) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج .
(٢) آية ٧٥ من سورة النساء .

العبادة ، وتعديدها لأماكنها : من صوامع وبيع للنصارى ، وصلوات لليهود ، ومساجد للمسلمين ، يعنى كفالة هذه الحرية لجميع الناس .

ثم بين القرآن واجب المسلمين بعد النصر ، والتمكين لهم فى الأرض ، فى تطهير المجتمعات من الظلم والإثم ، وإقامتها على الحق والعدل والخير :

« الذِّين إنْ مَكنَّاهُم فِى الأَرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بالمعْروفِ وَنَهوْا عَنِ المنكَرِ ، ولِلهِ عاقبةُ الأُمُور (١) » .

وبهذا حصر الإسلام الحرب فى أضيق نطاق ، وجعلها إنسانية الأسباب والأهداف ، ليس فيها مظنة عدوان ولا مطامع .

السرايا والمناورات :

بعد الإذن بالقتال ، بدأ الرسول عليه السلام فى بعث سرايا من أصحابه كمناورات على الحدود واستطلاع لأخبار قريش ، وذلك لتأمين المدينة ومعرفة حركات أعدائه حتى لا يؤخذ على غرة ، وقد خرج بنفسه فى عدد منها اتفق أثناءها مع بعض القبائل التى بين مكة والمدينة حتى لا تعين قريشاً أثناء الهجوم .

وفى السنة الثانية من الهجرة فى شهر رجب ، بعث عبدالله بن جحش فى عشرين من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا يفتحه إلا بعد يومين من مسيره ، فلما فتحه وجد فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » .

---

(١) آية ٤١ من سورة الحج .

فسار عبد الله وأصحابه حتى نزلوا نخلة ، عدا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، ذهبا يطلبان بعيرين ضلا ، فاسرتهما قريش ، وفى نخلة مرت بهذه السرية قافلة لقريش يقودها عمرو بن الحضرمى . وتشاور عبد الله مع أصحابه ، وذكروا ما فعلت بهم قريش ، وما أخذت من أموالهم ، فأجمعوا على الاستيلاء عليها ، فقاتلوا حراسها ، وقتلوا قائدها وأسروا رجلين من رجالها ، ثم عادوا بالبعير والأسيرين إلى المدينة ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، وأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ منها شيئاً، وحزن عبدالله وأصحابه وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم المسلمون لمخالفتهم أمر رسول الله ، وأثارت قريش الدعاية وأذاعت أن محمداً وأصحابه قد استحلو الشهر الحرام ، فسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال، كما ردد اليهود هذه الدعاية فى المدينة وعيروا بها المسلمين، فرد القرآن عليهم ، وأقرهم على أن القتال فى الشهر الحرام كبيرة كما يقولون، ولكن قريشا قد ارتكبت ما هو أكبر ، فقد كفرت بالله وصدت عن سبيله وأخرجت المؤمنين من المسجد الحرام وفتنتهم فى دينهم ، وذلك أكبر عند الله من القتل ومن القتال فى الشهر الحرام :

« يسألُونَكَ عن الشَّهر الحرام قتال فيه ؟ قُلْ : قتالٌ فيه كبير ، وصَدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا (١) » .

(١) آية ٢١٧ من سورة البقرة .

فلا جناح إذن على المسلمين فى التعرض لقوافل قريش ، ما دامت معتدية ظالمة ، ومادامت مصرة على القتال حريصة على فتنة المسلمين فى دينهم ، فالقضاء على قوتها الاقتصادية يعتبر من صميم الدفاع عن النفس ؟

وقد فهمت قريش بعد هذه السرية أن المسلمين جادون فى الدفاع عن دعوتهم وكيانهم ، وأن تجارتها قد أصبحت فى خطر ، مما يعرض مكة لحصار اقتصادى يضرُّ بها ضرراً بليغاً ، ولكنها بدلا من أن تلجأ إلى التفاهم مع النبى فتترك له حرية دعوته وتضمن هى سلامة تجارتها ، لجأت إلى السيف وآثرت طريق الحرب والعدوان ، فكانت معركة « بدر » بداية عهد الصراع الدامى المرير بينها وبين المسلمين .

أدب الحرب

لا يعتبر الإسلام القتال حرفة مقصورة على فئة معينة ، إنما يفرض الجهاد بالنفس والمال على كل قادر فى الأمة رجالا ونساء ، ويعد الأمة كلها لتكون عند الحاجة جيشاً يجاهد فى سبيل الله ، يقف كل فرد من أفرادها على ثغرة من ثغراتها ، ولا يعتمد فى هذا الإعداد على التشريع وحده ، بل يجمع بينه وبين التربية ، أى أنه يعنى أولا بوازع الضمير ثم سلطان القانون .

وقد تناول القرآن بالتفصيل كل ما يتصل بالحرب : أسبابها وأهدافها ، وأصولها وآدابها ، ولم يأت بها دفعة واحدة ، إنما جاء بها منجمة فى مناسباتها ، لأنها ليست أوامر عسكرية ، بل آداباً تربوية للإنسانية كلها فى جميع أجيالها .

ونستطيع تقسيم آداب الحرب إلى قسمين : نفسية ، وهى ماتتصل بالجندى وروحه المعنوية وخلقه وفكرته عن الحرب ؛ وموضوعية ، وهى التى تتصل بأصول الحرب وقواعدها ، وواجب المسلمين فى كل مرحلة من مراحلها .

ا - الآداب النفسية

(١)

تعرضت الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة بعد قيامها بقليل لأخطر ما تواجهه دولة ناشئة ما زالت فى مرحلة التكوين ، فقد كانت مهددة بهجوم المشركين من جميع أنحاء الجزيرة ، وحرب اليهود وكيد المنافقين بداخل المدينة ، وخطر دولة الروم المتربصة على الحدود من الشمال ، وقد بلغ هذا الخطر أقصاه فى غزوة الأحزاب ، حين زحف عليها المشركون وحاصروها لمدة شهر ، وانضم إليهم يهود بنى قريظة ، وتخلى المنافقون عن الدفاع ، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون لهذا الخطر حتى تم لهم النصر على المشركين واليهود .

ولا يرجع النصر الذى أحرزه المسلمون فى المعارك التى خاضوها إلى كثرة عددهم وقوة أسلحتهم ، فقد كان الفارق ضخماً بينهم وبين أعدائهم فى كل معركة من حيث العدة والعدد ، إنما يرجع هذا النصر إلى طبيعة التربية التى قام بها الإسلام فى ضمير الفرد وفى واقع المجتمع ، تلك التربية التى وصلت بالأمة كلها رجالا ونساء كباراً وصغاراً ، إلى القوة فى كل جوانب النفس وجميع نواحى الحياة .

ولا يقف الإسلام فى سبيل إعداد الأمة وتربيتها على القوة عند حد رفع الروح المعنوية بالمفهوم الشائع الصغير ، ولا يعتمد إلى استثارة حماسة العاطفة أو التعصب ، بل يصل إلى غايته بالتربية العميقة الهادئة ،

فيبدأ بمقاومة أسباب الضعف البشرى مقاومة منهجية سليمة حتى يأتى عليها من الأساس .

إن الخوف من الموت والحرص على الحياة إحساس متلف للنفس ، يوردها موارد الضعف والجبن والهلع ، ويدفعها إلى الفرار فى مواطن البأس والخطر ، ويحول بينها وبين القيام بالواجب والدفاع عن الحق ؛ ويقاوم الإسلام هذا الإحساس بالإيمان بحقيقة الحياة والموت ، فهما من أمر الله ليس لأحد عليهما سلطان ، والعمر محدود لا ينقص ولا يزيد ، والأجل مكتوب لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا دخل لقوة فى الأرض ولا لسبب من أسبابها فى تأجيله أو تعجيله :

« فإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، ولا يَسْتَقْدِمُونَ (١) » .

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مؤَجَّلاً (٢) » .

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الموتُ وَلَوْ كُنتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ (٣) » .

وقد تكون هذه الحقيقة معروفة يسلم بها أغلب الناس ، ولكن الإسلام لا يكتفى بمجرد المعرفة ولا يتركها بمعزل عن السلوك ، بل يجعلها أصلا إيمانياً فى صميم العقيدة ، ويربى عليها تربية عميقة طويلة ، ويروض عليها النفس حتى تصبح واقعاً عملياً فى الفكر والسلوك .

---

(١) آية ٦١ من سورة النحل .
(٢) آية ١٤٥ من سورة آل عمران .
(٣) آية ٧٨ من سورة النساء .

لما قال المنافقون بعد معركة أحد : لو أن النبي أطاعنا فى عدم الخروج من المدينة ، لما قتل منا من قتل ، ردهم القرآن إلى هذه الحقيقة ، وأكد لهم أن الذين قتلوا يوم أحد ، لم يكن لهم مفر من الخروج ومن القتل فى مكان المعركة ، لأنه أجلهم الذى كتبه الله لهم ، واعتبر قولهم هذا جهلا بحقيقة الأجل ، وجهلا بقدر الله ، ورجعة عن الحق الذى جاء به الإسلام إلى تفكير الجاهلية الباطل :

« وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظَنَّ الجَاهليَّةِ ، يَقولونَ : هَلْ لنا مِنَ الأَمرِ منْ شىءٍ ؟ قُلْ : إنَّ الأَمرَ كُلَّه للهِ ، يُخْفُونَ فى أنفسِهِم مَالاَ يُبْدونَ لَكَ ، يَقُولونَ لَو كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىءٌ ما قُتِلْنَا هَاهُنا ، قُل : لَّوْ كُنتُمْ فى بُيوتِكُمْ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عَليهِمُ القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهمْ ، ولِيبتلَىَ اللهُ ما فى صُدُورِكُمْ ، وليمحِّصَ ما فى قُلُوبِكُمْ ، واللهُ عليمٌ بذَاتِ الصُّدورِ (١) » .

وطهر المجتمع المسلم من هذا الظن الجاهلى ومن القول به ، لأنه ظن خاطىء ، وجهل بحقيقة الأجل لا يقول به إلا الكافرون :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كالذينَ كَفَروا وقَالُوا لإخْوَانِهِمْ إذا ضَرَبُوا فى الأَرضِ أَو كانوا غزًّى : لَّوْ كَانُوا عِندَنَا ما مَاتُوا وما قُتِلوا ، لِيجْعَلَ اللهُ ذلِكَ حَسْرةً فى قُلُوبِهِمْ ، واللهُ يُحْيِى ويُميتُ ، واللهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ » (٢) .

(١) آية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٢) آية ١٥٦ من سورة آل عمران .

والإسلام لا يحارب الفطرة ولا يقف فى سبيلها ولا يأمر بكبتها ، ومن ثم فإنه يعلى من فطرة الحرص على الحياة ، ويرتفع بأسلوب إشباعها عن حيز الأرض الضيق ، وعمر الدنيا القصير ، ومتعها الفانية ، فيربط هذه الفطرة بالحياة الباقية والخلود الحقيقى ، والقتل فى سبيل الله إن هو إلا نقلة إلى حياة خير من حياة الدنيا ، وبداية للخلود عند الله فى جنات النعيم :

« وَلَا تَحْسَبنَّ الَّذِينَ قُتِلوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْواتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ،وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذينَ لمْ يَلحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنون (١) » .

وحياة الشهيد عند ربه حياة حقيقية ليست على سبيل المجاز ، يصورها النبى صلى الله عليه وسلم أبلغ تصوير فى الحديث الذى رواه ابن ماجه فى سبب نزول هذه الآية ، عن جابر بن عبد الله قال :

« لما قتل أبى يوم أحد ، قال لى رسول الله : يا جابر ، ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك ؟ »

قلت : بلى !

قال : ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ، وكلم أباك كفاحاً ؛ فقال : يا عبدى تمن على أعطك . قال : يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية . قال : إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فأبلغ من

(١) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

ورائى : فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً : : : الآية » .

* * *

وأصبح المسلمون بهذه التربية فى شوق عارم إلى الشهادة ، وحنين دائم إلى الجنة ، واستهانة عجيبة بالحياة الدنيا ، ويقول النبى صلى الله عليه وسلم متمنياً الشهادة : « والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده ، لوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

وفى معركة بدر ، قال النبى : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : جنة عرضها السموات والأرض ! ! بخ . بخ ، فقال له النبى : ما يحملك على قول بخ . بخ ؟ فقال : رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها . فألقى عمر ما كان معه من زاد ، وتقدم من المعركة وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وقاتل عمير حتى قتل .

ولما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، مر أنس بن النضر بنفر قعود ، فقال لهم : ما يقعدكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ؟ قال : فما

تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك بما صنعه المسلمون ، وأبرأ إليك مما صنع المشركون ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال له : يا سعد ، الجنة ورب النضر ، إنى أجد ريحها من دون أحد .

قال أنس بن مالك ، ابن أخيه : فوجدناه فى نهاية المعركة قد قتل ومثل به المشركون ، ووجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، فلما أراد الخروج مع النبى إلى معركة أحد منعه بنوه وقالوا له : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فجاء إلى النبى وقال له : يا رسول الله ، إن بنىّ هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، والله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه الجنة ، فقال النبى لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة .

فخرج عمرو فى الجيش ، ودعا ربه قائلا : اللهم ارزقنى الشهادة ولا تردنى إلى أهلى خزيان . فقتل شهيداً فى أحد .

وقبيل القتال فى أحد ، جاء عبد الله بن جحش إلى النبى فقال : يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم — يريد المشركين — قد نزلوا حيث ترى ، وقد سألت الله الشهادة ، وأنا أسألك أخرى يا رسول الله ، أن تلى تركتى من بعدى . فقال له : نعم

فقاتل عبد الله حتى قتل ، ودفن مع حمزة فى قبر واحد .

وجاءت أخته حمنة بنت جحش ، وكانت فى الجيش تحمل الماء وتضمد الجراح ، فقال لها رسول الله : يا حَمْن ! احتسبى .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : خالك حمزة .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الشهادة !

ثم قال لها : احتسبى .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : أخوك عبد الله .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الشهادة !

ثم قال لها : احتسبى .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : مصعب بن عمير .

قالت : واحزناه .

فقال : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد ، ثم قال لها : لم قلت هذا ؟

فقالت : يا رسول الله ، ذكرت يتم بنيه فراعنى .

ولما فاء المسلمون إلى النبى يوم أحد ، كان أولهم عودة ثلاثة : عباس بن عبادة ، وخارجة بن زيد ، وأوس بن أرقم ، فنادى عباس :

يا معشر المسلمين ، الله ونبيكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ، وعدكم النصر فما صبرتم ، ما عذرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ومنا عين تطرف ؟ ! ثم نزع مغفره وخلع درعه ليقاتل حاسراً ، وقال لخارجة : هل لك فيهما ؟ قال : لا ، أنا أريد الذى تريد . فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً .

وكان حارثة من شباب الأنصار ، عاده رسول الله فى مرضه فطلب منه أن يدعو الله له أن يرزقه الشهادة ، فدعا له .

فلما قتل فى بدر ، وعلمت أمه بمقتله قالت : والله لا أبكيه حتى أسأل رسول الله ، فلما قدم المدينة قالت له : يا رسول الله ، قد عرفت موقع حارثة من قلبي ، فإن يكن فى الجنة صبرت ، وإن يكن غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء .

فقال : يا أم حارثة ، إنها ليست جنة واحدة ، ولكنها جنان ، وحارثة فى الفردوس الأعلى . فرجعت وهى تضحك وتقول : بخ ، بخ ، يا حارثة ، هنيئاً لك الجنة ؟

* * *

وبلغ من حبهم للشهادة أن أحدهم كان يتحسر وهو يموت فى بيته بعيداً عن ميدان القتال : فقد روى أن خالد بن الوليد قال عند موته : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وليس فى جسمى موضع إلا فيه ضربة بسيف أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء .

تغير نظرة المسلمين الى الموت والخوف منه :

كما تغيرت نظرتهم إلى الموت تغيراً كاملا ، فأصبح فى حسهم نقلة إلى حياة النعيم ، وبداية للخلود ومرافقة الأحبة ، وأصبح استقبالهم له بالفرح والإبتهاج ، كما روى عن بلال بن رباح موذن النبى أنه كان يقول وهو على فراش الموت : غداً ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه . كما روى ذلك عن غيره من الصحابة ، وكأنما كانت هذه العبارة لحناً محبباً إلى قلوبهم يستقبلون به الموت .

(٢)

الايمان بحقيقة النصر الموعود به من الله :

ومن آداب القتال النفسية التى بلغت بالمؤمنين ذروة القوة، الإيمان بحقيقة النصر ، فان الإسلام لا يكلف جنوده بما فوق طاقتهم ، إنما يطالبهم ببذل ما يستطيعون ثم يضمن لهم النصر ، لأن النصر من عند الله ، يؤتيه من يشاء :

« وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤْمنين (١) » .

« يأَيها الذين آمنوا إن تَنْصُروا الله يـنْصركم ويثَبِّتْ أقدامَكم (٢) » .

« ولينصرَنَّ الله من ينصرُه ، إن الله لقوى عزيزٌ (٣) » .

(١) آية ٤٧ من سورة الروم .
(٢) آية ٧ من سورة محمد .
(٣) آية ٤٠ من سورة الحج .

وكيف يستطيع المؤمنون الوفاء بهذا الشرط ؟ كيف ينصرون الله ؟!

يتحقق ذلك بنصرة شريعته ، وتطبيق منهجه ، وطاعه أوامره وذلك وحده هو سبيل النصر :

وفى معركة بدر كان عدد المؤمنين وعدتهم أقل من المشركين بكثير ، ونظر إليهم النبى فدعا ربه قائلا : « اللهم إنهم ضعاف فقوهم ، اللهم إنهم قلة فكثرهم ، اللهم إنهم عالة فاحملهم ، اللهم إنهم كما ترى فانصرهم » :

وخطبهم قبيل المعركة يذكرهم بحقيقة النصر وأسبابه فقال :

« انظروا الذى أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم به بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمراً تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فان وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد : وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير » :

واطلع الله سبحانه على أهل بدر ، فوجد قلوباً مؤمنة متوكلة عليه ، قد حققوا فى ذات أنفسهم وفى واقع حياتهم أسباب النصر التى طالبهم بها ، فأنجز لهم وعده ، وأيدهم بنصره ، ونزلت سورة الأنفال فيها تأكيد لهذه الحقيقة ، وتذكير للمؤمنين بصنع الله لهم فى هذه المعركة :

« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدُّكم بألف من الملائكة مُردِفين . وما جعله الله إلا بُشرَى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصرُ إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشّيكم

النعاس أَمَنةً منه ويُنزِّلُ عليكم من السماءِ ماءً ليطهرَكم به ويُذهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبِّتَ به الأَقدامَ . إذْ يُوحِى ربُّك إلى الملائِكة أنى معكم فثبِّتوا الذين آمنوا ، سأُلقى فى قلوب الذين كفروا الرعبَ فاضرِبوا فوقَ الأَعناقِ واضرِبُوا منهم كل بنان (١) » .

إنها صورة تأخذ بالألباب ، وتبعث على القوة والإقدام ، وتملأ القلوب ثقة ويقيناً فى نصر الله : فالله سبحانه هو الذى تولى المعركة ، فأنزل الأمن والسكينة فى قلوب المؤمنين ، وطهرهم من وساوس الشيطان ، وربط على قلوبهم وثبت أقدامهم ، وألقى الرعب فى قلوب أعدائهم ، وجعل الملائكة والنعاس والمطر تساهم فى أسباب النصر ، وهو تصوير يجعل نصر المؤمنين فى معارك الحق ظاهرة كونية وسنة من سنن الوجود .

وفى معركة حنين ، كان الجيش الإسلامى كامل العدة والعدد ، فبعد فتح مكة بجيش عدته عشرة آلاف ، خرج النبى لمعركة حنين وانضم إليه ألفان من أهل مكة ممن أسلموا حديثاً ، وكان عدوهم فى خمسة آلاف ، ولكن حقيقة النصر زُلزلت فى قلوب المسلمين وفيهم عدد كبير حديث عهد بالإسلام ، فداخلهم الغرور وأعجبتهم قوتهم وكثرتهم ، حتى إذا وصلوا إلى وادى حنين قبيل الفجر ، باغتهم عدوهم وأخذهم على غرة ، فولى الجيش هارباً ، ولم يثبت إلا النبى فى

(١) الآيات ٩ — ١٢ من سورة الانفال .

قلة من أصحابه ، فبين لهم القرآن علة فرارهم ، وأنهم أتوا من قبل أنفسهم حين زلزلت حقيقة الإيمان فى قلوبهم :

« لقد نصركم الله فى مَواطنَ كثيرةٍ ، ويومَ حُنيْنٍ ، إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغْنِ عنكم شيئا وضاقت عليكم الأَرض بما رَحُبتْ ثم ولَّيتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينَته على رسوله وعلى المؤْمنين ، وأنزلَ جنودًا لم تروها وعذَّبَ الذين كفروا ، وذلك جزاءُ الكافرين (١) » .

وعلى أساس الإيمان بالأجل وكرامة القتل فى سبيل الله وقوة اليقين فى النصر ، يطالب الإسلام جنوده بالثبات فى المعركة :

« يـأَيها الذين آمنوا إذا لقِيتم فئةً فاثبتوا واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون (٢) » .

فاذا بدأ القتال ، فليس أمام الجندى المسلم إلا النصر أو الشهادة ، ويعبر عنهما القرآن بالحسنيين :

« قل : هل تَرَبَّصونَ بنا إلا إحدى الحُسنيَيْن ؟ ونحن نتربَّصُ بكم أن يصيبَكم الله بعذابٍ من عندهِ أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم مُتربِّصون (٣) »

---

(١) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة التوبة .
(٢) آية ٤٥ من سورة الانفال .
(٣) آية ٥٢ من سورة التوبة .

ومن ثم كان الفرار فى المعركة أمراً يتصل بالعقيدة ويتنافى مع الإيمان ، ويستوجب غضب الله وعذابه ، وليس مجرد جريمة فى حق الدولة أو المجتمع :

« يـأيها الذينَ آمنوا إذا لقِيتُم الذينَ كفروا زَحْفًا فلا تولُّوهم الأَدبارَ . ومن يولهم يومئذ دُبُرَهُ إلا متحرِّفًا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باءَ بغضب من الله ومأْواهُ جهنم وبئسَ المصيرُ (١) »

وفى معركة مؤتة ظهرت نتائج هذه التربية قوية رائعة ، فى الجيش وفى المجتمع ، فقد بعث النبي جيشاً من ثلاثة آلاف ، فلما بلغوا مؤتة ، وجدوا أن الروم قد أعدوا لهم إعداداً ضخماً ، تقول الروايات إن جيشهم كان حوالى مائتى ألف ، على رأسهم هرقل .

« فأقاموا ليلتين ، وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر ، ليردهم أو يزيدهم رجالا ، فشجعهم عبد الله بن رواحة — أحد قواد الجيش — وقال :

والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . انطلقوا ؟ والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد فرس واحد ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور عليهم ، فذلك ما وعدنا الله ووعدنا نبينا ، وليس لوعده خلف ، وأما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم بالجنان .

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة الانفال .

فشجع الناس ومضوا إلى مؤتة ، فرأوا المشركين ومعهم ما لا قبل لهم به من العدد ، والسلاح ، والكراع ، والديباج ، والحرير ، والذهب قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة ، مالك ، كأنك ترى جموعاً كثيرة ! قلت : نعم . قال : لم تشهدنا ببدر ! إنا لم ننصر بالكثرة[١] » .

وبدأت المعركة رغم التفاوت الكبير بين الجيشين ، وقتل القواد الثلاثة الذين أمّرهم رسول الله : زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة ، فتسلم القيادة خالد بن الوليد ، الذى تمكن من الانسحاب بالجيش والعودة به إلى المدينة . وكان المسلمون قد بلغهم خبره ، فخرجوا للقاء جنده خارج المدينة ، وجعلوا يحثون فى وجوههم التراب ، ويقولون : يا فرار ، أفررتم فى سبيل الله ؟! ولزم جنود الجيش بيوتهم فكان المسلمون يذهبون إليهم واحداً واحداً ، ويقولون له : اتفر فى سبيل الله ؟ هلا تقدمت مع أصحابك فقتلت ؟ ولم يمنع أهل المدينة عنهم إلا رسول الله ، فقال لهم : إنهم كرار وليسوا فرارا إن شاء الله .

(٣)

التجرد لله ولدعوته :

والتجرد لله ولدعوته ثالث أسباب القوة النفسية : التجرد الذى يبدأ فى ضمير الفرد من مظان الشرك والعبودية لغير الله ، ومن تصورات

---

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ج ١ ص ٢٤٧ .

الجاهلية الفاسدة وقيمها الزائفة ووشائجها التى لا تقوم على أساس الإيمان .

والتجرد فى واقع المجتمع من الأخلاق والسلوك والنظم والمناهج التى تتنافى مع مبادىء الإسلام ، حتى يصبح كل ما فى الحياة من قول وعمل ، وحب وبغض ، وسلم وحرب ، وفقاً لتلك المبادىء ، خالصة لوجه الله ، وليست للأهواء والمطامع والشهوات .

وتجرد الأمة التى تؤمن بأنها تمثل مبادىء الحياة المثلى ونظامها الربانى ومثلها الرفيعة ، وتملك الدواء للإنسانية القلقة المنحرفة ، وتفهم رسالتها على أنها جهاد فى سبيل الخير الإنسانى باعلاء كلمة الله فى الأرض .

ولا يقوم هذا التجرد على التعصب الممقوت ولا الأنانية الهابطة ، إنما ينبعث من الفهم العميق للفكرة ، والإيمان الراسخ بالحق ، والتمسك الكامل بالمنهج ، والطاعة الواعية لأوامر الله ، والجهاد الدائم لخير بنى الإنسان ، وبهذا تطهر النفوس من العداوة والحقد ، ويطهر السلوك من الاستعلاء والظلم ، ويطهر القتال من القسوة والانحراف .

ويفاصل القرآن المؤمنين مفاصله صريحة واضحة ، فيجعل كل وشائج القرابة والنسب ، وكل مطامع الحياة ومتعها فى كفة ، وفى الكفة الأخرى : حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله ، ويدع لهم الخيار ، فاما إيمان وإما فسوق :

« قلْ : إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجكُم وعشيرتُكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشوْنَ كسادَها ومساكنُ

ترضونها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ فى سبيله فتربَّصوا حتى يأتى اللهُ بأمرِه ، واللهُ لا يهدى القومَ الفاسقينَ (١) » .

ولا يريد القرآن من المؤمنين أن يزهدوا فى طيبات الحياة ، ولا أن يعتكفوا فى الصوامع ، ولا أن ينقطعوا عن الأهل والولد ، ولا أن يتركوا المال والعمل ، إنما يريد أن تحكمهم عقيدتهم ، وأن يسيطر عليهم إيمانهم ، ويخلصوا قلوبهم لله ولدعوته ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما ، ولا يحول بينهم وبين الجهاد حائل ، ولا يعوقهم معوق من أهل أو مال أو ولد .

وتحقيقاً لهذا التجرد الكامل ، عقد القرآن بين المؤمنين وبين الله سبحانه مبايعة ، اشترى الله فيها أنفسهم وأموالهم بالجنة :

«إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفُسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنةَ ، يُقاتلون فى سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون ، وعْداً عليه حقًا فى التوراةِ والإنجيل والقرآن ، ومن أوْفى بعهده من الله ؟ فاستبشِروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوزُ العظيمُ (٢) » .

وقد كانت معارك الرسول صلى الله عليه وسلم تربية عملية للمسلمين ، ففى معركة أحد أمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم فوق الجبل مهما كانت الأسباب ، حماية لظهر الجيش ، وكان مما قاله لهم : « احموا لنا ظهورنا ، فانا نخاف أن نؤتى من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا

(١) آية ٢٤ من سورة التوبة .
(١) آية ١١١ من سورة التوبة .

منه ، وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا » ، ثم قال : « اللهم إنى أشهدك عليهم » .

وبدأت المعركة واختلت صفوف المشركين ثم انكشفوا وبدأوا يفرون منهزمين ، وظن الرماة أن المعركة قد انتهت ، وترك معظمهم مكانهم وخالفوا أمر النبى ، ولحقوا ببقية الجيش ليشاركوا فى الغنيمة ، واغتنم فرسان المشركين الفرصة ، فصعدوا الجبل وقتلوا من بقى عليه من الرماة ، ثم باغتوا المسلمين من ورائهم ووضعوا فيهم السلاح ، فتفرق الجيش ، وفر أغلبه وقتل منه عدد كبير وجرح النبى صلى الله عليه وسلم . فنزل القرآن يكشف لهم عن سر هزيمتهم بعد أن كادوا يبلغون النصر ، وذلك أن بعضهم أراد متاع الدنيا وحرص على المشاركة فى الغنائم :

« ولقد صَدَقَكُم الله وعدَهُ إذ تَحُسُّونهم بإذنه ، حتى إذا فَشِلتم وتنازعتم فى الأَمر وعصَيْتُم من بعدِ ما أَراكم ما تُحبون ، منكم من يُريدُ الدنيا ومنكم من يريد الآخرةَ ، ثم صرفكم عنهم ليبتلَيكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضلٍ على المؤْمنين (١) » .

وقد بلغت هذه التربية بالمسلمين حداً بلغ أن بعضهم كان يرفض حقه فى الغنائم .

« عن شداد بن الهادى : أن رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أهاجر معك ، فأوصى به النبى بعض

(١) آية ١٥٢ من سورة آل عمران .

أصحابه ، فكانت غزاة غنم فيها النبي شيئاً فقسم ، وقسم له ، فقال : ما هذا ؟ فقال : قسمته لك . فقال : ما على هذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا — وأشار بيده إلى حلقه — بسهم فأموت فأدخل الجنة . قال : إن تصدق الله يصدقك . فلبثوا قليلا ثم نهضوا فى قتال العدو ، فأتى به النبي محمولا قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبي : أهو هو ؟ قالوا : نعم . قال صدق الله فصدقه . ثم كفن فى جبة النبي ، ثم قدمه فصلى عليه ، فكان مما ظهر من صلاته : اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك فقتل شهيداً ، وأنا شهيد على ذلك » .

* * *

وكان عتبة بن ربيعة زعيما من زعماء قريش وسيداً من سادتها ، وكان ولده أبو حذيفة قد أسلم وهاجر إلى المدينة ، فلما كانت معركة بدر ، قتل عتبة فيمن قتل من سادة قريش ، ووقف الشاب المؤمن ينظر إلى أبيه وهو يطرح مع قتلى المشركين فى القليب ، فرآه النبي حزينا قد تغير لونه فقال له :

لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شئ ؟

فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف فى أبى رأياً وحلماً وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى أمره .

* * *

وكان عبد الله بن أبى زعيم المنافقين ، يقود حملة النفاق والكيد فى المدينة بين صفوف المسلمين ، فلما كانت معركة بنى المصطلق ، سعى بالوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، وقال لأتباعه : إذا عدنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها ، الأذل معرضاً برسول الله .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولده عبد الله ، وكان شاباً مؤمناً قوى الإيمان ، فقال له :

ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول أبى بأبى أنت وأمى ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بأبيه منى ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيها برأسه لأتيتها به . فقال له رسول الله : لا .

فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابه بالسيف لأبيه ، ثم قال له : أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله . والله لن تدخل البيت إلا باذن رسول الله . فصرخ الرجل فى قومه : يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى ، يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى ، فاجتمع إليه رجال وكلموه ، فقال : والله لن يدخله إلا باذن رسول الله ، فأتوا النبى فأخبروه فقال : إذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه . فأتوه فقال : أما إذ جاء أمر النبى فنعم .

ولا بد من وقفة أمام هذا الحادث ، فعبد الله شاب مؤمن بار بأبيه ، ليس فى المدينة أحد أبر بأبيه منه ، والبيئة العربية بيئة العصبية المتاصلة ،

ولأبيه مكانته فى قومه ، فقد كان مرشحاً للملك قبل الإسلام ، ورغم ذلك يبدى إستعداده لقتله طاعة لله ورسوله ، ثم يمنعه من دخول بيته إلا باذن من النبي ، حتى يعلم أهل المدينة من العزيز ومن الذليل ، ويشهدوا بأعينهم ذلة أبيه .

لقد ضاق عبد الله بمواقف أبيه المخزية ، وهو يشهد المعاملة الكريمة التى يعامله بها النبي ، وهو لا يزداد إلا كيداً للإسلام وإيذاء للرسول ، فتجرد الولد من قرابة الدم ، وأصبح جندياً يتعامل مع عدو من أعداء الإسلام .

(٤)

الصبر والمصابرة :

وتكمل قوة المؤمن النفسية بالصبر ، فالجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال ، ولا حماسة فى موقف شدة ، ولا إقدام فى معركة ، ولكنه الكفاح الدائم الذى لا ينقطع ، والجهاد المستمر الذى يستغرق العمر ، والبذل المتواصل الذى يستنفد النفس والمال ، وهو عمل لا يطيقه إلا من كان الصبر صفة من صفاته الأصيلة ، وعنصراً من عناصر تربيته الطويلة .

ويربى الإسلام الأمة كلها على الصبر ، فيأمرها القرآن بالصبر والمصابرة وخاصة فى مواطن الجهاد :

« يـأيها الذين آمنوا اصبِروا وصَابِرُوا ورَابِطوا واتقوا الله لعلكم تفلِحون (١) » .

(١) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

ويروضها على متاعبه ونتائجه :

« ولَنَبْلونَّكُم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأَموال والأَنفسِ والثمراتِ وبَشِّرِ الصَّابرين . الذين إذا أَصابتهم مصيبةٌ قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صَلَواتٌ من ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون (١) » .

ويجعل التواصى بالصبر سمة من سماتها :

« والعصرِ إن الإنسان لفى خُسْرٍ . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبرِ »

وكان الصحابة إذا لقى أحدهم صاحبه ، لا يفترقان إلا على سورة العصر ، لما فيها من التواصى بالحق والصبر :

وحين اعتبر القرآن المؤمن أقوى من عشرة من الكافرين ، وطالب المؤمنين أن يغلبوا عشرة أمثالهم ، إنما زكاهم بالصبر :

« إن يكُنْ منكم عشرون صابرون يَغْلِبُوا مائتين ، وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفا من الذينَ كفروا بأنهم قومٌ لا يَفْقَهُون (٢) »

وتحديد الإسلام لهدف المسلم فى الحياة ، يجعل منه إنساناً مجاهداً صبوراً على الجهاد ، يعيش لفكرته فى نفسه وفى بيته ، ويدعو إليها

---

(١) الآيات ١٥٥ — ١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة الانفال .

ويجاهد فى سبيل حمايتها والتمكين لها فى واقع الناس ، فغايته ليست فى المتاع والأكل ، فتلك غاية البهائم :

« والذين كَفَرُوا يتمتَّعُون ويأْكُلُونَ كما تأْكُل الأَنْعَامُ والنارُ مَثْوًى لهم (١) » .

إنما غايته أن يحقق رسالته فى الأرض ويكون لبنة صالحة فى بناء الأمة التى تعمل لخير الإنسانية وترقى بالحياة ، وتصور الحياة على هذه الصورة ، وتحديد الهدف فيها بهذا الوضوح ، يروض المسلم على الصبر على الجهاد وتحمل متاعبه ونتائجه .

ولقد كانت حياة النبى صلى الله عليه وسلم حركة دائمة وكفاحاً متصلا وجهاداً فى سبيل الله ، لم يأنس فيها إلى راحة أو متعة ، فصبر على قومه فى مكة ثلاثة عشر عاماً ، وصبر نفسه فى المدينة على تربية أصحابه ، وصبر على كيد اليهود والمنافقين ، وصبر على الكفاح والجهاد ، فخرج بنفسه فى خمس وعشرين غزوة ، وبعث سبعاً وأربعين سرية ، وهو الحاكم المسئول عن كل ما فى المدينة ، يخلف المجاهدين فى أهليهم وأموالهم ، ويصلى بالمسلمين فى المسجد جميع الصلوات ، ويكفل فقيرهم ، ويعود مريضهم ، ويصلى على موتاهم ، ويشيع جنائزهم ، ويقضى بينهم ، وهو مع ذلك كله صاحب تسعة بيوت .

لقد كانت حياته تربية للمسلمين على الصبر وتحمل متاعب الجهاد ، الصبر الذى يجعل الحياة كلها كفاحاً متصلا وجهاداً فى سبيل الله .

---

(١) آية ١٢ من سورة محمد .

(٥)

السلام اصل من اصول الاسلام :

مع عناية الإسلام البالغة بقوة المسلمين أفراداً وأمة ، وأمره ببذل ما فى الوسع للإعداد للقتال ، وإعداده الأمة كلها لتكون عند الحاجة جيشاً يقاتل فى سبيل الله ، وتربيتها على الأخذ بأسباب القوة والصبر على الجهاد ، فانه لا يعتبر الحرب هى الأصل فى الحياة ، إنما يعتبرها ضرورة لدفع العدوان والظلم ، ويعتبر السلام هو الأصل والهدف الذى يعمل لتحقيقه .

إن العالم فى حاجة ماسة إلى قوة تدافع فيه عن الحق ، وتكفل الحرية لجميع الناس ، وتقف فى وجه الدول الطاغية التى تستذل الشعوب وتمتص دماءها وتتحكم فى مصائرها ، والإسلام يريد لأمته أن تكون هى هذه القوة ، تحافظ على أمن العالم وسلامته وسلامه ، والانتصار للحق فى كل مكان ، بصرف النظر عن الدين والجنس والوطن ، ومن ثم كان لابد لها من القوة : قوة الإيمان بالحق ، وقوة النفوس ، وقوة الإعداد ، فالسلام الذى يريد الإسلام إذن ، ليس سلام الضعف والاستكانة ، ولا السلام على حساب مثله الرفيعة فى الحياة .

والسلام فى مبادىء الإسلام أعمق من أن يكون مجرد رغبة يدعو إلى تحقيقها فى الحياة ، إنما هو أصل فى عقيدته ، وعنصر من عناصر تربيته ، وهدف بعمق الإحساس به فى ضمير الفرد وفى واقع المجتمع وفى بناء الأمة .

إنه يتصور الحياة وحدة إنسانية غايتها التعارف والتعاون بين الجميع ولا يتصورها صراعاً بين الطبقات ، ولا حرباً بين الشعوب ، ولا عداوة بين الأجناس :

« يـأيها الناسُ إنا خلَقناكُمْ من ذَكَرٍ وأنْثَى وجعلناكم شعوبًا وقبائِل لتعارفوا إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم (١) » .

ويتصور الأديان كلها ديناً واحداً ، بعث الله به رسله للبشرية الواحدة ، والمؤمنين الذين آمنوا بهذا الدين أمة واحدة ، فى كل زمان ومكان ، ويصور النبى هذه الوحدة بالبناء الواحد الذى لا يشغل منه إلا موضع لبنة : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة .

فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين (٢) » .

وبهذا قضى الإسلام على معظم الأسباب التى تؤدى إلى العداوة والحروب :

* * *

ثم يخطو الإسلام خطوة كبيرة فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، وذلك بتقرير حقوق الإنسان ، تلك الحقوق التى لم يصل إليها حتى اليوم نظام ولا شريعة ولا فلسفة ، فى عمقها وأصالتها ورفعتها ، فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق كريم وكائن ممتاز ، كرمه ربه بنفحة علوية من روحه ،

---

(١) آية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه .

وزوده بالمواهب والطاقات التى تمكنه من تعمير الأرض والرقى بالحياة، وأسجد له ملائكته وجعله خليفته فى أرضه ، وسخر له فى حياته كل ما يحتاج إليه لتحقيق رسالته :

« ولقَدْ كرَّمْنَا بنِيَ آدمَ وحملناهم فى البر والبحرِ ورَزَقناهم من الطيباتِ وفضَّلناهم على كثيرٍ ممن خلَقنا تفضيلا (١) » .

ويهدف الإسلام إلى تحقيق هذه الكرامة للإنسان فى واقع الحياة ، للإنسان بوصفه إنساناً ، بصرف النظر عن دينه وجنسه ولونه ووطنه ، فأعطاه حق الحياة الحرة الكريمة ، ففرض لكل جاهل أن يتعلم ، ولكل محتاج أن يعان ، ولكل مريض أن يداوى ، ولكل خائف أن يؤمن ، وصان عرضه وماله ومسكنه ، وحرم دمه أن يسفك ، وحريته أن يعتدى عليها ، وضميره أن يتحكم فيه ، ولم يترك هذه الحقوق عرضة للعبث والضياع ، ولم يصغها فى أسلوب الحكم والنصائح إنما جعلها من صميم العقيدة لها حرمة الإيمان ، كما جعلها فرضاً على المجتمع والدولة :

وأكد حرمة الدم البشرى ، فحرم سفكه إلا بالحق ، لا فرق بين إنسان وإنسان :

« ولا تَقْتُلوا النفسَ التى حرَّمَ الله إلا بالحق (٢) » .

وعظم من حرمة النفس البشرية ومن وزر الاعتداء عليها ، فاعتبر

(١) آية ٧٠ من سورة الاسراء .

(٢) آية ١٥١ من سورة الانعام .

النفوس كلها وحدة ، من اعتدى على إحداها فكأنما اعتدى عليها جميعاً ، لأنه اعتدى على حق الحياة ، ومن قدم لإحداها خيراً فكأنما قدم الخير للإنسانية بأسرها :

« من أَجْلِ ذلك كتبْنَا على بنى إسرائيلَ أنه من قتلَ نفسًا بغير نفسٍ أو فساد فى الأَرض فكأَنَّما قتلَ الناسَ جميعًا ، ومن أحياها فكأَنما أَحيا الناسَ جميعًا (١) » .

وعلى أساس احترام النفس الإنسانية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يربى أصحابه :

« روى البخارى عن جابر قال: مرت بنا جنازة ، فقام النبى وقمنا فقلنا : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودى : فقال : أو ليست نفساً ؟ إذا رأيتم جنازة فقوموا » :

وبهذا الفقه كان المسلم يتحرج من سفك الدماء فى أحرج المواقف ، فحينما حاصر الثوار أمير المؤمنين عثمان بن عفان ومنعوا عنه الماء وأجمعوا على قتله ، حاول الصحابة أن يقاتلوا الثوار فأبى عثمان ، ويقول أبو هريرة : دخلت على عثمان يوم الدار ، فقلت له : جئت لأنصرك ، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة ، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياى معهم ؟ قلت : لا ، قال : فانك إن قتلت رجلا واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً ، فانصرف مأذوناً لك ، مأجوراً غير مأزور :

---

(١) آية ٣٢ من سورة المائدة .

ثم يرتفع الإسلام بالمسلمين إلى أفق إنسانى رفيع ، إلى مستوى العمل لخير الإنسانية كلها ، فيفرض عليهم الجهاد لتطهير العالم من الظلم والفساد ، ويبين لهم أن مهمة الرسل جميعاً هى إقرار العدل بين الناس :

« لقَدْ أرسلْنَا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديدَ فيه بأْسٌ شَديدٌ ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسُلَه بالغيبِ ، إن الله قوى عزيز (١)

ويحدد لهم واجبهم بعد نصر الله لهم والتمكين لهم فى الأرض بالعمل للخير الإنسانى ، لا لتكون أمة أقوى من أمة ، ولا ليكون دين أكثر أتباعا من دين :

« الذين إنْ مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر (٢) » .

ويربى النبى الأمة على العمل الإنسانى الخالص ، حتى ولو لم يكن من ورائه مظنة منفعة فيقول :

« إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة (٣) فليغرسها » . كأنما يريد أن يكون آخر عهد المسلم بالدنيا عملا إنسانيا أداه خالصاً لوجه الله .

* * *

(١) آية ٢٥ من سورة الحديد .

(٢) آية ٤١ من سورة الحج .

(٣) الفسيلة : النخلة الصغيرة تقطع من الأم لتغرس ، أو العود من الشجر يصلح للغـــرس .

ورغم أن الإسلام يعتبر لفسه الطور النهائى لدين الله الواحد ، وأن رسالته خاتمة الرسالات ، وأنه جاء بالمبادىء الخالدة للإنسانية كلها على طول الزمان — فانه لم يأذن للمسلمين باكراه الناس على عقيدته ، ولا بالتمكين لنظامه ومبادئه بالقوة ، ولا أباح الحرب بحجة نشر دعوته :

إن آيات القرآن فى عهديه — المكى والمدنى — صريحة واضحة محكمة ، تحدد أسلوب الدعوة بالحكمة والحسنى ، ومهمة الرسول فى الدعوة والبلاغ ، وتنهى عن القسر والإكراه :

« ولو شاءَ ربُّك لآمنَ مَنْ فى الأَرضِ كلُّهم جميعا ، أفأَنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤْمنين (١) » .

« وقلْ للذين أوتوا الكتابَ والأُميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلَمُوا فقد اهتدوْا ، وإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغُ ، والله بصيرٌ بالعبادِ (٢) » .

« فلذلك فادعُ ، واستقِمْ كما أُمِرْتَ ، ولا تتَّبعْ أهواءَهم ، وقلْ : آمنتُ بما أَنزَلَ الله من كتاب ، وأُمِرْتُ لأَعدِلَ بينكم ، الله ربُّنا وربُّكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكُم ، لا حجةَ بيننا وبينكم . الله يجمعُ بيننا وإليه المصيرُ (٣) » .

---

(١) آية ٩٩ من سورة يونس .

(٢) آية ٢٠ من سورة آل عمران .

(٣) آية ١٥ من سورة الشورى .

« لا إكراهَ فى الدينِ قد تبينَ الرشدُ من الغيِّ ، فمن يكفُرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعُرْوة الوُثْقى لا انفصامَ لها ، والله سميعٌ عليمٌ (١) » .

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادِلْهمْ بالتى هى أحسنُ (٢) » .

أما الذين يظنونَ أن الإسلام يبيح الحرب للتوسع وإكراه الشعوب على مبادئه ، فانما يحكمون عليه من ثنايا فتوحه ومعاركه ، ولم يفهموه من واقع أهدافه وأوامره ومبادئه .

لقد جاءت مبادئه ثورة عالمية لتحرير الضمير والفكر ، فربطت الاعتقاد بالفهم والاقتناع ، والإيمان بالدليل والبرهان ، والتقوى بالعلم والتفكير ، فكيف يعمد بعد ذلك إلى إكراه الناس على دعوته بالحرب والقتال ؟ .

* * *

وروح الإسلام ومبادئه ومنهجه فى التربية تهدف كلها إلى إقرار السلام وتعميق حبه فى ضمير المسلم وسيادته فى المجتمع ، وليس فى الدنيا شريعة ولا نظام يفرض على أتباعه رياضة أنفسهم على السلام إلا الإسلام ، ففى فريضة الحج يحرم على المسلم أن يقتل حيواناً أو يهيج طائراً أو يقطع نباتاً أو يؤذى إنساناً بيد ولا لسان :

---

(١) آية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٢٥ من سورة النحل .

« الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ ، فمن فَرَضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رفَثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ فى الحجِّ (١) » .

وكذلك الصوم ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الصوم جنة ، فاذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث ولا يصخب ، وإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل : إنى صائم ، إنى صائم » : وهى تربية عملية على تذوق حياة السلام وتعود ممارستها فى الحياة والتعامل على أساسها فى المجتمع :

وقد أشاد القرآن بالسلام إشادة بالغة تغرس حبه فى قلوب المؤمنين:

فالله سبحانه اسمه السلام :

« هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام (٢) » :

وليلة القدر التى نزل فيها القرآن ليلة كلها سلام :

« سلام هى حتى مطلع الفجر (٣) » :

والإسلام دعوة إلى السلام :

« يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام (٤) » :

والجنة دار السلام :

« والله يدعو إلى دار السلام (٥) » :

وتحية أهلها السلام :

---

(١) آية ١٩٧ من سورة البقرة .
(٢) آية ٢٣ من سورة الحشر .
(٣) آية ٥ من سورة القدر .
(٤) آية ١٦ من سورة المائدة .
(٥) آية ٢٥ من سورة يونس .

« دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام (١) » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يربى المسلمين على إيثار السلام واستنفاد الحيلة فى دفع العدوان بالحسنى وعدم القتال : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية » .

« وروى مسلم عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن عُدِىَ على مالى ؟ قال : فانشد بالله ، قال فان أبوا على ؟ قال : فانشد بالله ، قال : فان أبوا على ؟ قال : فانشد بالله ، قال : فان أبوا على ؟ قال : فقاتل ، فان قُتلت ففى الجنة ، وإن قَتلت ففى النار » .

وعلى أساس هذه الأصول ، يعتبر الإسلام السلام هو الأصل ، ويعتبر الحرب ضرورة لا يلجأ إليها إلا مقاومة للظلم ودفعاً للعدوان وحين لا يكون بد منها ، أما الحروب العدوانية أو الهجومية بالمفهوم الحديث ، فهى حروب لا يعرفها الإسلام :

« وقَاتِلوا فى سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تَعتَدوا ، إن اللهَ لا يُحب المعتدين (٢) » .

وكذلك يأمر القرآن بوقف الحرب بمجرد طلب العدو للصلح ، حتى ولو كان فى طلبه مظنة خيانة أو غدر ، أو كان يبغى من وراء وقف القتال كسب الوقت للإعداد لحرب ثانية :

« وإن جَنَحوا للسَّلمِ فاجنَحْ لها وتوكَّلْ على اللهِ ، إنه هو

(١) آية ١٠ من سورة يونس .

(٢) آية ١٩٠ من سورة البقرة .

السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين (١) » .

* * *

ولم تكن حروب الرسول صلى الله عليه وسلم إلا تطبيقاً عملياً لهذه المبادىء ، فلم يلجأ إلى القتال إلا مضطراً وفى حدود الدفاع عن حرية دعوته وعن كيان المسلمين ، ويبين ذلك بوضوح من استعراض أشهر معاركه مع المشركين وأهل الكتاب ، فقد كانت كلها دفاعية بالمفهوم الإسلامى الشامل للدفاع ؛ أو مبادرة لاتقاء هجوم مؤكد .

أما مشركو قريش ، فقد كان عدوانهم واضحاً طول العهد المكى ، ولم ينته هذا العهد حتى كانوا قد بدأوا يحكمون السيف فتآمروا على رسول الله وأجمعوا على قتله حتى لا يتم انتقال الدعوة إلى المدينة :

« وإذ يَمْكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقْتُلوك أو يُخْرِجوك ، ويمكُرون ويمكر اللهُ والله خيرُ الماكرين (٢) » .

وبعد أن تمت الهجرة كانت قريش تعد العدة وتتحين الفرص للقضاء على الإسلام والمسلمين ، ومن ثم كانت ظالمة معتدية منذ البداية ، ويشير القرآن إلى ذلك ، تذكرة للمسلمين :

---

(١) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الانفال .

(٢) آية ٣٠ من سورة الانفال .

« أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيمانَهُمْ وهَمُّوا بإخراج الرسولِ وهُم بَدَءوكُمْ أولَ مرة ، أتَخْشَونَهُمْ ؟ فاللهُ أحَق أن تَخْشَوْه إن كُنتمْ مُؤْمنين (١) » .

ومعركة بدر ، أولى معاركهم مع المسلمين ، كان عدوانهم فيها واضحاً لعدة أسباب :

أولا : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج بمن معه من أصحابه لقتال ، ولما علم أن قريشاً أقبلت فى جيش كبير لقتاله شاور المسلمين ، ولو كان خروجه من المدينة للقتال ما شاورهم .

ثانيا : أن قريشاً خرجت من مكة بحجة إنقاذ قافلة لها يقودها أبو سفيان من عدوان المسلمين ، ولكن القافلة وصلت سالمة إلى مكة ، وبعث أبو سفيان إليهم يخبرهم بنجاة القافلة ويطلب منهم الرجوع ، ولكن أبا جهل أصر على مواصلة السير قائلا : « لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم ثلاثاً ، ننحرُ الجزُرَ ، ونُطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، فلا تزال العرب تهابنا أبداً » . فلما علم أبو سفيان بقوله قال : « واقوماه !! ترأس أبو جهل على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم » .

ثالثاً : أن عدداً من زعماء قريش كانوا يرون عدم القتال لعدم وجود مايبرره ، وقد عاد من الطريق الأخنس بن شريق فى مائة من بنى زهرة .

---

(١) آية ١٣ من سورة التوبة .

رابعاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عمر بن الخطاب بعد وصولهم إلى بدر يقول لهم : « ارجعوا ، فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم ، أحب إلى من أن تلوه منى ، وأن أليه من غيركم أحب إلى من أن أليه منكم » : فقال حكيم بن حزام — أحد زعمائهم — : قد عرض نصفا فاقبلوه ، والله لاتنصرون عليه بعد ماعرض من النصف . فقال أبوجهل : والله لا نرجع بعد أن أمكننا منهم :

ومن ثم يكن للمسلمين بد من القتال رغم أنهم كانوا فى قلة من العدد والعدة .

أما معركة أحد فكانت هجوماً من قريش على المدينة للأخذ بثأر معركة بدر ، وكان من رأى النبي عدم الخروج والدفاع عنها من داخلها ، ولكن الأغلبية رأت الخروج للقاء العدو قبل مداهمتها ، فخرجوا والتقوا بهم فى أحد بالقرب من المدينة .

أما معركة « المريسيع » أو بنى « المصطلق » ، فسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن الحارث بن أبى ضرار جمع لحربه جمعاً كبيراً من قومه ومن قبائل العرب ، وأنهم قد تهيئوا للمسير إلى المدينة ، فبادرهم النبي قبل الخروج ، فلما وصل إليهم بعث إليهم عمر بن الخطاب يعرض عليهم الإسلام فأبوا وقاتلوا .

وغزوة الأحزاب كانت حصاراً للمدينة ، حاصرها المشركون فى عشرة آلاف مقاتل ، وانضم إليهم يهود بنى قريظة من داخلها ، ويتضح بغى المشركين وعدوانهم من النشيد الذى كان ينشده النبي مع

المسلمين وهو يعمل معهم فى حفر الخندق ، وهو نشيد يفيض ثقة بالله وتوكلا عليه وتنزهاً عن البغى والعدوان :

لاهُمَّ (١) لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا
وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى لقدْ بَغَوْا علينا
وإن أرادوا فتنة أَبَيْنا

كما يبين إصرار المشركين على القضاء على الإسلام والمسلمين من الرسالة التى بعث بها أبو سفيان زعيم قريش إلى النبى أثناء الحصار : « باسمك اللهم : فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك فى جمعنا وإنا نريد ألا نعود أبداً حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ ! فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد » .

وفى الحديبية تجلى حب النبى للسلم ورغبته عن القتال ، وذلك أنه فى السنة السادسة من الهجرة خرج من المدينة ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه يريد مكة لزيارة المسجد الحرام ، ومعهم الهدى لهذا الغرض ، وخاف المسلمون من عدوان قريش فقالوا للنبى : لو حملنا

---

(١) لاهم : اللهم . وتأتى فى الشعر كثيرا لاستقامة الوزن .

يارسول الله السلاح معنا ، فإن رأينا من القوم ريباً كنا معدين لهم ، فقال : لست أحمل السلاح ، إنما خرجت معتمراً .

ونزل المسلمون بالحديبية على بعد تسعة أميال من مكة ، وجاء بديل بن ورقاء سفيراً من قريش ، فبلغ النبي أنها أجمعت على قتاله ومنعه من زيارة المسجد الحرام ، فقال له النبي : إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بالبيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

وبعث النبي عثمان بن عفان إلى قريش يقول لها : « إنا لم نأت لقتال وإنما جئنا زواراً للبيت معظمين لحرمته ، ومعنا الهدى ننحره وننصرف » ، فقالوا له : لايدخل محمد علينا أبداً .

ثم جاء سهيل بن عمرو إلى النبي يعرض عليه شروطاً للصلح بعثته بها قريش ، وقد قبلها النبي ، ورأى المسلمون فيها إجحافاً بهم ، وقال عمر بن الخطاب للنبي : يارسول الله ، ألسنا بالمسلمين ؟! قال : بلى ، فقال عمر : علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى . وجعل عمر يردد ذلك حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح : ألا تسمع ياابن الخطاب رسول الله يقول مايقول ! تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك .

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب لكتابة المعاهدة ، وكره المسلمون ذلك ، وداخلهم أمر عظيم ، ولكن النبي أمر علياً بالكتابة ، وبدأ يملى عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : مانعرف الرحمن ، اكتب مانكتب : باسمك اللهم ، فضاق المسلمون

وصاحوا : والله مانكتب إلا الرحمن ، فقال النبي لعلى : اكتب باسمك اللهم ، هذا ماصالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ماخالفناك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، فضج المسلمون وارتفعت الأصوات ، وقالوا : لا نكتب إلا « محمد رسول الله » ، وإلا فالسيف بيننا ، علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فأمرهم النبي بالسكوت واستمر فى إملاء المعاهدة كما طلب سهيل ، ثم عاد بالمسلمين إلى المدينة دون زيارة المسجد الحرام فى ذلك العام .

ولما نقضت قريش عهد الحديبية ، سار إليهم النبي فى عشرة آلاف ، وعسكر بجيشه قرب مكة ، وجاءه زعماء قريش : العباس ابن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وغيرهما فأسلموا وعادوا إلى مكة بأمان رسول الله إلى أهلها : من دخل البيت فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ولذلك قال الشافعى وغيره من علماء المسلمين : إن مكة فتحت صلحاً بأمان عقده النبي مع زعماء قريش .

وأما معركة حنين فسببها أن مشركى هوازن وثقيف ومعهم بعض القبائل قد تجهزوا لحرب المسلمين ، فخرج النبي بجيشه للقائهم قبل هجومهم على مكة ، وفى وادى حنين باغتوا المسلمين بالهجوم وكادوا يظهرون عليهم لولا ثبات النبي فى جماعة من أصحابه .

حرب المباغته والعدوان :

وكذلك حروب النبى صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب — يهود ونصارى ، لم يكن فى واحدة منها بادئاً بالعداوة أو مهاجما أو فاتحاً ، إنما كان فيها كلها ملتزماً جانب الدفاع عن دعوته ودولته .

ومن التجوز أو الخطأ اعتبار ما حدث بينه وبين يهود المدينة معارك حربية ، لأنهم كانوا من رعايا الدولة الإسلامية ، ثم شقوا عصا الطاعة وخانوا الدولة فى أحرج الظروف ، فظاهروا حركة النفاق ، وشرعوا فى قتل النبى ، وحرضوا المشركين وأعانوهم بالمال وانضموا إليهم فى حرب المسلمين ، حتى أصبحوا خطراً يهدد الدولة الناشئة بالفناء ، ولو أنهم نجحوا فى إحدى محاولاتهم لقضوا على الإسلام والمسلمين ، فلم يكن بد من أخذهم بغدرهم وخيانتهم ، وقد قضى النبى على كل فريق منهم بما يستحق .

وكان موقف نصارى الجزيرة يختلف تماماً عن موقف اليهود ، فقد حضر وفد نصارى نجران اليمن إلى النبى بعد أن دعاهم إلى الإسلام ومكثوا فى ضيافته بالمدينة أياماً ، فعرض عليهم الإسلام ولكنهم أصروا على عقيدتهم وجادلوه فيها ونزل جانب كبير من سورة آل عمران فى الرد عليهم وقد أكرمهم النبى وسمح لهم بالصلاة فى مسجده ، ثم وادعوه وعادوا إلى بلادهم دون أن يدخلوا فى الإسلام .

وكذلك كانت صلة النبى بالحبشة ، وهى دولة مسيحية ، صلة المودة والصداقة ، ولم يحدث بينه وبين أحد من النصارى قتال إلا

ما كان من أمر دولة الروم التى كانت تحرض قبائل العرب المتاخمة للشام على دولة المدينة ، وقتلت أحد رسل النبى ، وجمعت جيشاً كبيراً بلغ مائتى ألف بقيادة هرقل لحرب المسلمين ، فكانت معركة موئتة ثم غزوة تبوك ، ولم يحدث قتال فى تبوك ، لأن النبى اكتفى بانسحاب الروم ولم يفكر فى تعقبهم أو غزو بلادهم .

واستمر عدوان الروم وحشدهم على الحدود يهدد دولة المدينة حتى لحق النبى بالرفيق الأعلى ، فمات صلى الله عليه وسلم وهو يجهز جيش أسامة لتأمين الجزيرة من هذا الخطر .

فيهود المدينة الذين خانوا دولتها والروم الذين أعلنوا عليها الحرب هم وأضرابهم طوائف أهل الكتاب الذين تعنيهم الآية :

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ ولا باليْومِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حرَّمَ اللهُ ورسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتُوا الكِتَابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (١) » .

ولا تشمل الآية الكريمة جميع أهل الكتاب ، فلم يقاتل النبى صلى الله عليه وسلم إلا من بدأ فعلا بالعدوان وقد بعث رسله إلى ملوكهم

(١) آية ٢٩ من سورة التوبة .

وحكامهم يدعونهم إلى الإسلام ، فنهم من استجاب ومنهم من بقى على دينه دون أن يفكر النبي فى قتاله ؛

* * *

ومن هذا العرض الموجز لأهم معارك الرسول يبين بجلاء أنها بعيدة كل البعد عن العدوان أو الحروب الهجومية ، ومن ثم كان الإسلام بحق دين السلام ، ولكنه يحرم الظلم ويأمر بمقاومته وقتال أهله حتى ولو كانوا من بين المسلمين :

« وإن طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمنينَ اقْتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فإنْ بَغَتْ إحْداهُمَا على الأُخْرَى فَقَاتِلوا التى تَبْغِى حتى تَفِيءَ إلى أمر اللهِ (١) » .

---

(١) آية ٩ من سورة الحجرات .

ب - الآداب الموضوعية

حصر الإسلام الحرب فى دفع العدوان وحماية حرية العقيدة ، وبرأها من الهوى ومن الدوافع الاقتصادية والعنصرية ، وأحاطها بجميع الضمانات التى تجعل منها حرباً إنسانية تحمل معها الحق والخير والكرامة لكل إنسان ، وفرض لها نظما وحدوداً وآداباً شرعها لمصلحة البشرية كلها لا لمصلحة المسلمين خاصة ، وأقامها على أسس أخلاقية رفيعة تطهرها من الطمع والخيانة والقسوة .

جاء الإسلام بآداب تنظم العلاقة بين الدول فى السلم والحرب وتكفل حرمة العهود والمواثيق ، فكانت أول مبادئ دولية عرفتها البشرية ، وجاءت سابقة على تفكير المدنية الحديثة فى هذا المجال بألف عام ، وما زالت سابقة لكل ما وصلت إليه من مبادئ وقوانين ، فى أصالتها وسموها وشمولها وفى ضمان تطبيقها .

ولعل أبرز ما يؤخذ على المدنية الحديثة ثلاثة أمور :

أولها : أنها تبيح المباغتة بالهجوم ، بل تعتبرها براعة عسكرية ، فتظهر الدولة الود لعدوها وتخفى منه أحقادها وأطماعها ، وقد تعقد معه معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، إمعاناً فى الخديعة وإخفاء لنيتها المبيتة على العدوان ، ثم تعمد إلى مفاجأته وأخذه على غرة ، لتجهز عليه دون مشقة ولا عناء .

والثانى : أشد بشاعة وقسوة ، وهو الهلاك الذى يصيب المدنيين أثناء الحرب ، والدمار الذى يأتى على القرى والمدن ، ويهلك الحرث والنسل ، ويهدد العالم أجمع بالخراب والدمار ، وقد رأى العالم فى الحرب الأخيرة ويلات وأهوالا ما زالت آثارها باقية فى البلاد والنفوس.

والأمر الثالث : نظرة هذه المدنية إلى المعاهدات ، وتفسيرها دائماً لمصلحة القوى ، واعتبارها عند الحاجة إلى تطبيقها قصاصات من الورق لا تساوى المداد الذى كتبت به ، واستباحة نقضها لمصلحة الدولة ، فانعدمت الثقة بين الدول ، وانتفى العنصر الأخلاقى فى المجال الدولى ، الأمر الذى يعرض العالم لحالة التوتر الدائمة التى يسمونها الحرب الباردة ، ويستنفد جانباً كبيراً من ميزانيات الدول فى التسلح والإعداد لحروب الخراب والفناء.

وموقف الإسلام من الأمور الثلاثة واضح صريح ، فأما الأمر الأول فلم يأذن الإسلام بالعدوان ، ولم يبح حروب المباغتة ، بل فرض على المسلمين أن ينذروا عدوهم ويعلنوه بالحرب ، حتى لا يؤخذ على غرة ، فقد يلجأ إلى التفاهم ، ويؤثر السلم ، وذلك لقول القرآن :

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » (١).

« وقد روى أن سلمان الفارسى انتهى إلى مدينة من مدن الفرس ، فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم ، فقال لهم :

---

(١) آية ٥٨ من سورة الانفال

إنما كنت رجلا منكم ، فهدانى الله عز وجل للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » .

يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ، غدا المسلمون إليها ففتحوها :

وروى الإمام أحمد بن حنبل أن معاوية بن أبى سفيان كان يسير بالجيش فى أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم .

فإذا شيخ فى الجيش ينادى : وفاء لا غدر يا معاوية ، إن رسول الله قال : من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء :

فلما سمع معاوية ذلك رجع بالجيش :

تحريم التخريب والإتلاف وقتل المدنيين :

أما الأمر الثانى فإن الإسلام يحصر الحرب فى ميدان القتال ، ويحرم التخريب والإتلاف وقتل المدنيين أو حرمانهم من وسائل العيش ، ولا يغفل أبداً أن هدفه مصلحة البشرية ، مهما كانت قسوة المعارك وحرارة القتال ، وأنه رسالة خير ورحمة ، لا سوط عذاب ونقمة .

روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « وجدت أمرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن قتل النساء والصبيان » .

وفى رواية أخرى أنه وقف على المرأة المقتولة ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل ! ثم قال لأحد أصحابه : الحق بخالد بن الوليد ، فلا يقتلن ذرية ولا أجيراً ولا امرأة .

وفى صحيح مسلم عن بريدة قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال له : اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » .

وبعد رسول الله وقف خليفته من بعده أبو بكر الصديق يودع جيش أسامة قبل مسيره إلى الشام ، فأوصى جنده قائلا :

« لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد حبسوا أنفسهم فى الصوامع للعبادة ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » .

وكذلك صنع عمر بن الخطاب ، فمن أوامره لجيوشه :

« لا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين » .

« لا تقتلوا هرِما ولا امرأة ولا وليدًا ، وتَوَقَّوْا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات »

وقد أفاض الفقهاء فى بيان حقوق المواطن غير المسلم ، الذى يقيم بالدولة الإسلامية ، ثم تقع الحرب بينها وبين قومه ، فلا يصادر ماله ، ولا يعطل عمله ، ولا يعتدى على حريته ، ولا تساء معاملته ، ما دام قائماً بواجبات الدولة ، وقد أخذوا هذه الحقوق من الآية الكريمة :

« وإنْ أَحَدٌ من المُشْرِكينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتى يَسْمَعَ كلاَمَ اللهِ ثمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ(١) » .

وهذا المشرك المستجير ، أو اللاجئ الخائف ، الذى تأمر الآية بتأمينه ، غير المواطن المستأمن ، وكلاهما لا ينظر إليه الإسلام نظرة عداء ، ولا يعجل إليه بالأذى ، إنما يعامله معامله إنسانية كريمة ، مالم يبدأ بالعدوان ، مهما كان دينه أو جنسه أو وطنه .

« ومن أظرف ما قرأته مما يدل على مقدارما للمستأمن من حرمة ، ما روى من أن واصل بن عطاء — زعيم المعتزلة — وقع هو وبعض أصحابه فى أيدى الخوارج ، وهم كما هو معلوم من أشد المسلمين تمسكاً بأهداب الدين وتعصباً فى آرائهم ، فخشى واصل وأصحابه شرهم ، فقال لأصحابه: دعونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده : فقالوا: قد أجرناكم . فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، ثم قالوا : امضوا مصاحبين فإنكم إخواننا . قال واصل : ليس ذلك لكم فإن الله تبارك وتعالى يقول: « وإن أحدٌ

---

(١) آية ٦ من سورة التوبة .

من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » فأبلغونا مأمننا . فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذلك لكم . فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن .

تلك القصة تدل على أن الحرمة التى للمستأمن كانت فى نظر بعض أنصار الدعوة المحمدية أعظم من الحرمة التى للمسلم على المسلم ، حتى إن أحد علماء المسلمين وجد فيها خلاصاً لنفسه ومن معه من يد مسلمين يقطعون طريق السابلة ويعصون الإمام (١) » .

احترام العهود والمواثيق :

أما العهود والمواثيق فلها فى الإسلام حرمة الإيمان . إذ أنه يفرض على المسلمين الوفاء بها ، مهما كانت قسوة الظروف ، ومهما كانت مظنة الخسارة العاجلة التى تلحق بهم ، حتى ولو كان العهد كلمة قالها جندى من الجيش للأعداء .

وقد عظم القرآن العهد فنسبه إلى الله تعالى ، كما عظم الوفاء والموفين به :

« إنما يتذَكَّرُ أولو الألبابِ . الذينَ يُوفُونَ بعِهد اللهِ ولا ينقُضُونَ الميثاقَ (٢) » .

وأمر بالوفاء ، وحذر من نقض العهد واتخاذ الأيمان للغش والخديعة ، وجعل عهود المسلمين فى ضمان الله تعالى ، توثيقاً لها وتأكيداً

(١) الرسالة الخالدة للاستاذ عبد الرحمن عزام ص ١٢٢ طبعة ثانية .

(٢) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة الرعد .

لعدم نقضها ، وصور ناقضى المواثيق فى صورة المرأة الخرقاء ، التى تغزل ثم تنقض ما غزلت ، وهو تصوير يلهم بأن الوفاء فى ذاته غاية يعمل الإسلام على إقرارها بين الناس :

« وأوفوا بعهدِ الله إذا عاهدتُمْ ولا تنقُضُوا الأَيْمانَ بعدَ توكيدِها وَقدْ جَعلتُمُ اللهَ عَليْكُم كَفِيلاً ، إنَّ الله يَعْلمُ مَا تَفْعَلونَ . وَلاَ تكونُوا كَالَّتِي نقضَتْ غَزْلها من بَعْدِ قوةٍ أنكاثًا تتَّخذون أَيْمانَكمْ دَخَلاً بينكم ـ أن تكونَ أمةٌ هىَ أَرْبَى من أمة ـ إنما يَبْلوكمُ الله بهِ ، وليبيِّنَنَّ لكمْ يومَ القيامةِ ما كنتم فيه تختلفون(١) »

فمصلحة الدولة التى تبرر بها الدول فى العصر الحديث نقض العهود والمواثيق ، واستباحة الغدر والكذب ، حجة باطلة ، ينص عليها القرآن صراحة : « أنْ تكونَ أمةٌ هى أرْبَى من أمةٍ » ، وينهى عن الوقوع فيها أو الإستسلام لضغطها .

وحقر القرآن من شأن ناقضى العهود ، ولعنهم وتوعدهم وجردهم من إنسانيتهم وعدهم من الأنعام :

« والذينَ ينقضونَ عَهْدَ اللهِ مَن بَعْدِ مَيثاقِهِ ويقطعونَ مَا أَمَرَ الله به أَنْ يُوصَلَ ويُفْسِدونَ فى الأَرضِ أُولئِكَ لَهمُ اللَّعنة وَلَهمُ سوءُ الدارِ (٢) » .

---

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .

(٢) آية ٢٥ من سورة الرعد .

« إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عند اللهِ الذين كَفَروا فَهُم لا يؤْمِنونَ . الذّينَ عاهدَتَ منهم ثُمَّ ينقضون عَهْدَهم فى كلِّ مرةٍ وَهُم لا يتقون (١) » .

ويرتفع بالوفاء بالعهد إلى قمة لم تعرفها البشرية إلا فى هذا النظام ، وذلك أنه يحرم على الدولة الإسلامية أن تنقض العهد لتنصر مسلمين وقع عليهم الاعتداء من أمة معاهدة :

« . . والذينَ آمنوا ولم يُهَاجِرُوا ما لكمْ من وَلاَ يتهم من شىء حتى يُهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدّين فَعلَيكم النَّصر إلا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ ، واللهُ بما تعملون بصيرٌ (٢) » .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

« يقول تعالى : وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا فى قتال دينى على عدو لهم ، فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم إخوانكم فى الدين ، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق ، أى مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنه » ؛

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصا كل الحرص على الوفاء بالعهد ، وسيرته تفيض بالمثل التى ربى أصحابه عليها ، فكانوا من بعده آية فى الصدق والوفاء .

---

(١) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة الانفال .

(٢) آية ٧٢ من سورة الانفال .

قال حذيفة بن اليمان : ما منعنى من حضور معركة بدر ، إلا أن المشركين أخذونى مع صاحب لى وقالوا لنا : إنكما تريدان محمداً : فقلنا لهم : ما نريده ، إنما نريد المدينة : فتركونا بعد أن أخذوا علينا العهد ألا نقاتل مع النبى ، فجئت المدينة وهو منصرف إلى بدر ، فأخبرته الخبر فقال لى : انصرف ، نفى لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم :

وكان من شروط عهد الحديبية ، أن من جاء قريشاً من المسلمين قبلته ، ومن جاء محمداً من أتباع قريش لم يقبله ، وكان هذا الشرط شديد الوقع على المسلمين ، لأن قريشاً كانت تحبس فى مكة عدداً من المؤمنين ، تعذبهم لتردهم عن دينهم ، وكان المسلمون يودون إنقاذ هؤلاء المستضعفين مما هم فيه ، وبعد ذلك تمكن أبو بصير أن يفلت من محبسه وأن يخرج من مكة هارباً ويلحق بالمدينة ، فبعثت قريش فى أثره برجلين يطلبانه من النبى وفاء لعهد الحديبية فلما وصلا المدينة ، أمر النبى أبا بصير ليعود معهما إلى مكة : فذهل الفتى من أمر النبى وقال له : أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

فقال له : يا أبا بصير ، إنا أعطينا القوم ما تعلم ، وإننا لا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، فانطلق معهما ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً :

وفى عهد عمر بن الخطاب ، حاصر المسلمون بقيادة أبى عبيدة بن الجراح حصناً من حصون العراق ، وأوشكوا أن يفتحوه ، ولكن عبداً مسلما من جنود الجيش ، كتب أماناً لأهل الحصن ، دون أن يعلم بأمره أحد ، فقال المسلمون : إنه عبد ، وليس أمانه بشئ ، وتمسك أهل الحصن بالأمان ، وقالوا : لسنا نعرف الحر من العبد .

فكتب قائد الجيش ، أبو عبيدة بن الجراح إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يسأله رأيه ، فرد عليه عمر بكتاب جاء فيه : « إن العبد المسلم من المسلمين ، ذمته كذمتكم ، وإن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » .

وفى عهد بنى أمية ، فتح القائد قتيبة بن مسلم بلاد سمرقند ، فبعث أهلها إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بشكوى يقولون فيها : إن قائده استولى على بلدهم بالغدر والخديعة ، فأرسل عمر قاضيه « جميع ابن حاضر » ليحقق الشكوى ويحكم فيها ، فقضى القاضى لأهل سمرقند ، وأمر قتيبة أن يخرج بجيشه ثم يبدأ الحرب من جديد إذا أراد ، فبدأ الجيش فى الإنسحاب . وقد روى أن القاضى « جميع » حين قدم سمرقند ، كان يركب حماراً ، فلما رآه أهلها لم يتصوروا أن مثله يمكن أن يقضى بينهم وبين قتيبة القائد المنتصر الذى فتح بلادهم ، فلما وجدوا قتيبة يخضع لحكمه وبدأ ينسحب بجيشه فعلا خارج بلدهم ، تمسكوا بالمسلمين وكرهوا حربهم ، لما رأوه من عدلهم ووفائهم .

تحريم الإسلام للمثلة والنهبة والغلول :

ويحرم الإسلام المثلة والنهبة والغلول فى الحرب .

أما المثلة — التمثيل بالقتلى — فقد مثلت قريش ببعض قتلى المسلمين فى معركة أحد ، منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبى ، ولما رآه بعد المعركة قال : رحمة الله عليك ، إن كنت ما علمتك إلا وصولا للرحم ،

فعولا للخيرات ، أما والله لأمثلن بسبعين كمثلتك ، وقال المسلمون : لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم ، فأنزل الله على نبيه :

« وإن عَاقَبتُم فَعاقِبوا بمِثلِ مَا عُوقبتم به ،وَلِئنْ صَبْرتُم لَهُو خيْرٌ للصابرين . واصْبِر ومَا صَبرُكَ إلا بِالله ، ولا تَحزَنْ عَلِيهم ولاتَكُ فى ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرون (١) » .

فقال النبي : نصبر ولا نعاقب ، وكفر عن يمينه ؛

وكان هبار بن الأسود قد تعرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت من مكة مهاجرة إلى المدينة ، فضربها بالرمح فسقطت من فوق جملها على صخرة وكانت حاملا فأجهضت ونزفت ، وما زال بها مرضها حتى ماتت ، فأهدر النبي دمه ، وقال : إذا لقيتم هباراً فأحرقوه بالنار ، ثم قال : لا تحرقوه ، إنما يعذب بالنار رب النار ، إذا لقيتموه فاقتلوه ؛ وبعد فتح مكة ، جاء إلى النبي مسلما ، فقال له : يا هبار عفوت عنك ، وقد أحسن الله بك حيث هداك إلى الإسلام ، والإسلام يجب ماكان قبله ؛

ونهى النبي عن النهبة فقال : من انتهب نهبة فليس منا ؛

وروى أبو داود عن رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله فى سفر ، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد ، وأصابوا غنما فانتهبوها ، وإن قدورنا تغلى ، إذ جاء رسول الله يمشى على قوسه ، فأكفأ قدورنا

(١) الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧ من سورة النحل .

بقوسه ، ثم جعل يُرَمِّل اللحم بالتراب ، ثم قال : إن النهبة ليست بأحل من الميتة .

كما شدد فى النهى عن الغلول ، وهو اغتصاب شىء من الغنائم ، وقد روى أنه توفى رجل من المسلمين فى غزوة خيبر ، فذكروا ذلك لرسول الله ، فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت [1] وجوه الناس لذلك ، فقال : إن صاحبكم قد غل فى سبيل الله . ففتشوا متاعه ، فوجدوا خرزاً من خرز يهود لا يساوى درهمين .

ادب الاسلام فى الاسرى :

وأدب الإسلام فى الأسرى أدب إنسانى كريم ، وليس فى القرآن نص على استرقاق الأسير أو قتله ، إنما يخير المسلمين بين أمرين : المن والفداء :

« فإذا لَقِيتُم الذينَ كَفَروا فضَربَ الرِّقَابِ ، حتى إذا أثْخَنْتُمُوهم فَشُدُّوا الوثَاقَ ، فإما مَنًّا بَعْدُ وإما فِداءً حتى تَضَعَ الحربُ أوْزَارها [2] » .

وحض على البر بالأسير ، واعتبره قربة إلى الله :

---

(١) انما تغيرت وجوه أهل المدينة لذلك لانهم يرون ان الصلاة على الميت استغفار له من ذنب وترحم عليه . والشهيد يستغنى عن ذلك عندهم ، ولهذا يقولون بعدم الصلاة عليه ، كما ذهب اليه مالك بن انس .

(٢) آية ٤ من سورة محمد .

« ويُطعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حَبِّه مِسْكيناً ويتيماً وأسيراً . إنَّما نُطْعِمكم لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ منكم جَزاءً ولَا شُكوراً (١) » .

وكانت معاملة النبي للأسرى معاملة تفيض بالبر والرحمة والإحسان ولم يؤثر عنه أنه قتل أسيراً إلا من كان قد أهدر دمه لجريمة استحق بها القصاص ، وإجماع الصحابة على أنه لا يجوز قتل الأسير .

وليس فى موقفه من يهود بنى قريظة ما يدعو إلى اللبس أو يشذ عن هذه القاعدة ، إذ أنهم لم يكونوا أسرى حرب ، إنما كانوا من مواطنى المدينة الذين يدينون لدولتها بالطاعة ويتمتعون بكل حقوق أهلها ، وقد أعطوا على أنفسهم عهداً ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يعينوا عدواً ولا يقدموا يداً بأذى ، ولكنهم غدروا وخانوا فى أحرج الظروف ، وتآمروا على الدولة مع أعدائها أثناء الحرب ، فانضموا إلى أحزاب المشركين حين حصارهم للمدينة فى غزوة الخندق ، ونقضوا عهدهم صراحة وأعلنوا الحرب على المسلمين ، ولقد بلغ الرعب والفزع والجهد بالمسلمين فى هذه المعركة أقصى حد ، وكان خوفهم من بنى قريظة من داخل المدينة أشد من خوفهم من المشركين الذين يحاصرونها من الخارج ، فلما نصر الله المسلمين ، ونزل بنو قريظة على حكم النبى ، سألوه أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ، فقال لهم سعد : أترضون بحكمى؟ قالوا : نعم : فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به ، ثم

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الانسان .

قضى بقتل رجالهم : وهو الحكم الذى يتفق وجريمة الخيانة العظمى التى ارتكبوها ، والذى تعمل به كل الدول فى القديم والحديث .

وقد رويت حوادث كثيرة عن عفو النبى عن الأسرى والرحمة بهم حتى مع أشد خصومه كيداً وعداوة وحرباً للإسلام والمسلمين :

كان فى أسارى بدر فقراء ، لم يجدوا مالا يفتدون به ، فأطلق النبى سراح بعضهم دون فداء ، وجعل فداء الذين يحسنون القراءة منهم ، أن يعلم كل واحد عشرة من أبناء الأنصار الكتابة .

ووصل إلى علم النبى أن ثمامة بن أثال الحنفى سيد اليمامة ينوى اغتياله ، فأسره محمد بن مسلمة فى إحدى سراياه وجاء به إلى النبى ، فقال : أحسنوا إساره ، وابعثوا إليه بطعامه ، وأمر له بناقة يأتيه لبنها مساء وصباحاً ، ثم جاءه وقال له : يا ثمام ، هل أمكن الله منك ، هل عندك من خير ؟

فقال ثمامة : يا محمد ، إن تقتل ، تقتل ذا كرم ، وإن تعف ، تعف عن شاكر ، وإن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت ؛ ورفض الإسلام .

وفى اليوم الثالث قال له : قد عفوت عنك : وأطلق سراحه ؛

فقال : يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى ، ثم شهد شهادة الحق .

واستأذن ثمامة النبي فى العمرة فأذن له ، فذهب إلى مكة معتمراً فقالت له قريش : صبوت يا ثمامة وتركت دين آبائك . فقال : بل أسلمت وتبعت خير دين ، ثم قال لهم : والله لن يصل إليكم حبة من حنطة اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله . وكانت ميرتهم من اليمامة .

وعاد ثمامة إلى اليمامة ، وحال دون خروج شيء منها إلى مكة ، حتى جهدت قريش وأضر بها الجوع ، فكتبت إلى النبي تقول : تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ، وتأمر بصلة الرحم ، وهذا ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضر بنا ، فكتب إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين قوتهم .

ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل النضر بن الحارث وكان ضمن أسارى معركة بدر ، رثته أخته بقصيدة منها :

أمحمد يا خير ضنء كريمة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

فلما سمع النبي هذه القصة تأثر بها وتجلت روحه الإنسانية وحبه للعفو والرحمة فقال : لو بلغني هذا القول قبل قتله لمننت عليه .

وبعد فتح مكة اعتقد صفوان بن أمية أن النبي قاتله ، لأنه كان من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين ، وكان قد جعل لعمير بن وهب ، إن قتل رسول الله ، أن يتحمل بدينه ويقوم بعياله ، وحمله على بعير وجهزه ، فلما قدم عمير المدينة انكشف أمره واعترف للنبي بتحريض صفوان ، ثم أسلم وعاد إلى مكة مسلما ، فخرج صفوان من مكة هارباً

بعد الفتح ، وجاء عمير بن وهب إلى النبي يطلب أماناً لصفوان ، فقال له : أدركه فإنه آمن ، فقال عمير : يا نبي الله أعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه عمامته التي دخل بها مكة . فلحق به عمير وعاد به إلى مكة ، فجاء صفوان إلى النبي وقال له : إن هذا يزعم أنك أمنتني . فقال له: صدق، وعرض عليه النبي الإسلام فأبى وطلب إمهاله شهرين فقال له : أنت بالخيار أربعة أشهر .

* * *

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة خالدبن الوليدفي سرية إلى بني جذيمة داعيا إلى الإسلام ، فلما أقبل عليهم خالد أخذوا سلاحهم ، فأسرهم خالد وقتل بعضهم وفر أحدهم حتى جاء إلى النبي وأخبره الخبر ، فدعا علي بن أبي طالب وقال له: اخرج إلى بني جذيمة، فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال بعث به رسول الله ، فودى لهم الدماء[1] وما أصيب لهم من الأموال ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال ، احتياطا لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون .

ثم رجع علي إلى النبي فأخبره الخبر ، فقال له : أصبت وأحسنت .

---

(١) ودى لهم الدماء : دفع لهم ديات القتلى .

ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة شاهراً يديه إلى السماء يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات .

* * *

وبهذا أصبحت مثل القرآن واقعاً فى الحياة ، وأصبحت حقيقة فى قلوب المسلمين ، وما لحق النبى صلى الله عليه وسلم بربه ، حتى خرجوا من الجزيرة جهاداً فى سبيل الله ، يقاومون الظلم والتحكم والعدوان ، ويعملون على إقرار مثلهم الرفيعة بين الناس .

فريضة الجهاد

الجهاد فريضة مكتوبة على الأمة كلها ، وقد أجمع العلماء على أن جهاد الدعوة والتربية فرض كفاية تقوم به جماعة من الأمة ، فإذا تعرضت بلاد المسلمين للعدوان كان الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، ولن تجد نظاماً عنى بالجهاد والجندية وحشد الأمة كلها للدفاع بكل قواها عن الحق كما صنع الإسلام ، ورغم أنه دين السلام ، يجنح دائماً للسلم ويؤثرها على الحرب ، فإنه لا يرضى لأتباعه المذلة والهوان ، ويمقت العدوان والظلم ، ومن ثم فرض عليهم إعداد أسباب القوة والعزة .

وقد رفع الإسلام ذكر الجهاد فى سبيل الله وأعلى من شأنه ، متى تحققت أسبابه وبواعثه ، فجعل درجته أرفع الدرجات ، ومنزلته أسمى المنازل بعد الإيمان .

« قيل لرسول الله : ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : لا تستطيعونه ، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : لا تستطيعونه ، ثم قال : مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » .

وبعد أن فرض القرآن القتال على الأمة ورغب فيه ، حذر من التخلف عنه أو إهماله ، وتوعد الذين يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها عليه :

« إلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبكُم عذابًا أليمًا ويَسْتَبْدِلْ قومًا غَيرَكم ولا تَضرُّوه شيئًا ، والله على كل شيءٍ قَديرٌ (١) » .

وعقد بيعة كاملة بين الله سبحانه وبين المؤمنين ، لا يتم إيمان إلا بالوفاء بها :

« إن اللهَ اشْتَرَى من المُؤْمِنين أَنْفُسَهم وأَمْوَالهم بأَنَّ لهم الجنَّةَ : يُقاتِلون فى سَبيل اللهِ فَيَقْتلون ويُقْتَلون ، وَعْدًا عليه حَقًّا فى التَّورَاة والإِنْجِيل والقُرآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ؟؟ فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الَّذى بايَعْتُم به ، وذَلِكَ هُو الفوزُ العَظِيمُ (٢) » .

وما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، حتى سلم الراية لأصحابه وحمل الأمة كلها أمانة الدعوة والجهاد فى سبيل الله :

« لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال » :

« الجهاد ماض مذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل » :

* * *

(١) آية ٣٩ من سورة التوبة .

(٢) آية ١١٢ من سورة التوبة .

الفهرس

الفصل الثانى
الجهاد فى العهد المدنى

صفحة